القسم السابع

الحياة الموريتانية في القرن التاسع عشر

- ٢٢ -
الحياة الموريتانية في القرن التاسع عشر

«رأيتُ بلاد المغافرة مُعطلّة الرسوم»

سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم

عندما وصل الجيش الاستعماري الفرنسي إلىٰ سبخة الجِلْ (الجِلد) في آدرار في سبتمبر عام ١٩٠٩ مكوّنًا من قوتيْن ضاربتيْن يقودهما الكولونيل هنري غورو وينتظم فيهما عشرات المقاتلين من البيضان والسودان، صرخ أحد المقاتلين: «هذا هو الملح الذي تبيعون من أجله أبناءكم؛ آهٍ منكم أيها البامبارا»(١). ويبدو أن قصة بيع السودانيين لأبنائهم أصبحت نمطية شعبية موريتانية حديثة عن تاريخ استجلاب العبيد للبلاد وعن أصولِهم جملةً وقد نجت حتّىٰ إلىٰ بعض الأعمال «البحثية». إلاّ انها لم تكن غير أسطورة ذائعة اختزَلت أساليب جلب العبيد الكثيرة، التي لم يكن بيع السودانيين لأبنائهم يمثّل جزءًا بارزًا، أو حتىٰ هامًا، منها. غير أن سبخة الجِلْ كانت بالفعل معلمًا بسبب دورها التاريخي في مبادلة الملح الصحراوي بالعبيد السودانيين. وكانت لقرونٍ المصدرَ الأهم للأملاح المسافرة إلىٰ الجنوب لاستجلاب العبيد الذين كان يبيعهم المحاربون السود والبيض، والذين كانوا يختطفونهم ويبيعونهم علىٰ طول الخطّ التجاري بين الشمال والجنوب؛ وكانوا يُنقَلون إلىٰ المغرب أو يُستَبقَونَ في الحياة الصحراوية.

(1) Henri Gouraud, Au Soudan: souvenirs d'un africain, Paris: Pierre Tousne, 1939, 245-246.

وبهذا المعنىٰ فقد كانت السبخة الكبيرة رمزًا من رموز القرن التاسع عشر الصحراوي والسوداني.

كان هذا القرن قرن التلاقي مع الغرب بما هو أكثر من القرون التي سبقته، وكان عصر الازدهار لتشكيلات اجتماعية ولأفرادٍ كُثرٍ في الصحراء والسودان، وكان طفرةً للمجموعات التجارية النشطة التي احتكّت فيها بالرأسمالية الساحلية ونهلت من زوائدها. فشهد القرن تسارع وتيرة استدخال الصحراء لأنشطة وبضائع كانت هامشية سابقًا. وقد انعكس هذا بوفرة علىٰ اقتصاد الترحال والرعي وزراعة الواحات؛ فأنتج ازدهارًا للتجارة ما بين الشمال والجنوب، وذلك بفعل تزايدٍ كبير في تجارة ثلاثة «أشياء»: الملح والعبيد والصمغ، إضافة إلىٰ ظهور علاقات جديدة كالسلطات الروحية التي كانت تسهِّلُ العبور بين المناطق التجارية وتُعيد توزيع الموارد بين الأتباع، والعلاقات التجارية العابرة للقبيلة التي أنتجت نخبًا تجارية صغيرة زادت من ازدهار الكصور والمجتمعات المستقرة وهجرَت حياة الترحال والحروب وانشغلت بالتجارة والزراعة.

❁ ❁ ❁

قبل القرن التاسع عشر كان العبيد موجودين في الصحراء، ولكنهم لم يكونوا عنصرًا حيويًا وحاضرًا كما كانوا في هذا القرن، الذي سرّع من وتيرة استقدامهم. وقد جعل منهم وجودهم في كل عائلة وبيت تقريبًا نسبةً كبيرة في المجتمعات البيضانية والتكرورية والسونينكية. فمثلًا لاحظ أميل بروسيه في أواخر القرن التاسع عشر أن قبائل البيضان من مشظوف والسكارنة وكنتة ومن عرفهم بالتُوَاج وأولاد المولىٰ وإيداس في منطقة الشرق كانوا يصلون إلىٰ ٥٤٠٠٠ حرّ بينما يصل عبيدهم إلىٰ ٤٨٠٠٠ عبد زنجي، وذلك في حساباته للسكان البيضان في «غرب جنوب الجزائر»، الذي يضمُّ أيضًا نواحٍ من شرق الجنوب الموريتاني. وفي منطقة أوكليميدن، حيث وُجدت قبائل البيضان بكثرة، عدَّدَ الأسياد العرب بـ٧٢٠٠٠، وعدّدَ عبيدهم الزنوج بـ ٦٠٠٠٠[١].

---

(1) Mile Broussais, De Paris au Soudan: Marseille-Alger-transsaharien, Alger: Imprimerie Casablanca, 1891, p. 131.

ثمّة تفسير لهذه الكثرة: وذلك أن توافد العبيد إلىٰ الصحراء كان أسرع وتيرة من نسبة توالدها وأسرع من التوافد الموسمي لمعظم البضائع التجارية المُستقدَمة هي الأخرىٰ. فقد كان يدخل المجال الصحراوي ما بين ٣٠٠٠ إلىٰ ٧٠٠٠ عبد سنويًا في هذا القرن، حسب تقييم بيير بونت(١). وحسب حسابات المؤرخة آن ماك دوغال، فقد دخل حوالي ٩٧٠٠٠ عبد إلىٰ المجال الصحراوي في هذا القرن. وفي منطقة الحوض وصلوا إلىٰ خمسين بالمائة من السكان، بعد أن تزايدوا إلىٰ ٣٦٠٠٠ عبد. وفي تگانت تراوحوا ما بين ٥١% إلىٰ ١٢%، حيث بلغوا ١٠٠٠٠ عبد. وكان ثمّة حوالي ١٥٠٠٠ عبد في البراكنة يُشكِّلون نسبة ٥٠%، أكثريتهم من المُستَقدَمين من كايور. وفي الترارزة كانوا يشكِّلون ٢٠% من السكان، ما وصلَ إلىٰ حوالي ٢٠٠٠ عبد. أما في آدرار، الأبعد من الجنوب السوداني، فقد تراوحوا بين ٣٠% إلىٰ ١٠% مشكِّلين ٣٧٠٠ عبد(٢).

عادَ ازدهار استقدام العبيد للمضارب الصحراوية في أساسه إلىٰ تطوّرات مهمّة في الحياة في المنطقة؛ فقد أصبح الظفر بالعبيد متاحًا للغالبية الساحقة من الصّحراويين بعد أن انخفضت أسعارهم كثيرًا وتيّسر استجلابُهم بسبب الاستثمار الكثيف من قبل الصحراء والسودان في النخاسة. كما أن نمو المجتمعات الزراعية ونمو المدن في الصحراء وخارجها ولَّد حاجيات جديدة غير معهودة للرقيق، أو غير مطروقة كثيرًا سابقًا. وزاد علىٰ هذا العوامل المحلية في المجتمعات السودانية التي كانت تتعلّق بزيادة قوّة المجموعات المقاتِلة في مجتمعات الجولا والماركا والتكرور والفوتا، التي نمت في جزء منها بالاستثمار في النخاسة؛ فزادت قدرتها علىٰ تحصيل العبيد وتنظيم المتاجرة بهم أكثر مما في السابق. كما أن ازدياد الطبقة المحاربزة البيضانية المسيطرة علىٰ ضفاف النهر وشمال السودان بقبائل جديدة في القرن التاسع عشر، مثل أولاد الناصر وأولاد علّوش وإيدوعيش

(1) Pierre Bonte, Essai sur la formation tribales du Sahara occidental: approches comparatives anthropologies et histories, Bruxelle: Editions Luc Pire, 2007, p. 114.

(2) Anne McDougall, "Salt, Saharans, and The Trans-Saharan Slave Trade: 19th Century Developments", in Elizabeth Savage, Ed., "The Human commodity: Perspectives on the Trans-Saharan Slave Trade," London: Frank Cass, 1992, pp. p. 70.

وأولاد داوود ومشظوف، زاد من مجهودات الغزوات التي كانت تقودها القبائل المحاربة السابقة ممن وصفتهم إحدىٰ الوثائق الفرنسية في القرن التاسع عشر **بحكومات البيضان**: الترارزة والبراكنة وإيدوعيش. هذا بالإضافة إلىٰ غزوات أولاد امبارك وهجمات الركَيبات والرعيان وغيرهم من المجموعات البعيدة، التي كانت تستثمر في غزو الجنوب بشكل موسمي أو خاطف.

وفيما وراء النهر كانت قرىٰ الجولا والفوتا تعجُّ بالساكنة المُستعبَدة الذين كانوا يعملون في الزراعة، وسيصبحون مادة لاقتصاد استغلال البشر وتشييئهم وتبضيعهم. وقد أسفر تكوّن مجتمع محارب في جماعات التكرور في منطقة الفوتا عن اقتياتها علىٰ الهجوم علىٰ المجتمعات الزراعية في السنغال وغامبيا وعموم وسط إفريقيا. سياسيًا، كان هذا القرن يشهد نموَ القرىٰ المسلمة بفعل عمليات الأسلمة التي قادها الشيوخ الدينيون في القرون السابقة، وكان التمايز الدِّيني الوليد في المجتمعات الزنجية يغذِّي الصراعات والهجمات فيما بينها بغرض التعبيد. ولقد أصبح التعبيد والنخاسة وقودًا للحروب الدينية، ولكنه كان قابلًا للترجمة إلىٰ حياة اقتصادية مستقلّة عن الأدلجة. فقد تزايد الطلب عليه من التجار البيضان والمغاربة المقيمين في الأقاصي الصحراوية الذين كانوا يستعينون عليه بموادهم التجارية كالملح.

كان الملح ما يزال ثروة صحراوية مهمة كما كان في سالف القرون. ولم تتحوّر اعتمالاتُه الماضية إلاّ قليلًا؛ فإذا كان دأبَ علىٰ استجلاب الذهب وغيره فيما مضىٰ فإنّه الآن صارَ يستجلِبُ العبيد، الذين أصبَحَ يمكن قياس بعضٍ من حركةِ دخولِهم في الصحراء بحركة خروج الأملاح منها. وبالطبع فقد تراوحت بقيّة استجلاباتِهم ما بين التعبيد بالغزوات والاختطافات أو بيعهم وشرائهم مقابل بضائع ونقود أخرىٰ كالخيل والصمغ وغيرها. ولكن قيمة هذه البضائع كانت ثانوية إلىٰ جانب الملح؛ إذْ يقترِحُ بعضُ الدّارسين أن ملح التاسع عشر استُبدل بها، وأصبح أساس جدلية مقايضة العبيد. ومهما يكن من أمرٍ، فإن تجارته ستشهدُ نشاطًا وافرًا وحضورًا للمجموعات التي لم تعمل سابقًا في تجارته. وترجِّحُ الباحثة آن ماكدوغال أن هذا قد حدث أساسًا في منتصف القرن التاسع

عشر عندما تغيّر الخط التجاري إلىٰ النيجر، فتضاعفت قيمة خطّ آدرار-تمبكتو[1]. ونعرفُ أن هذا تلازم مع تضاعف عائدات التجارة، ممّا شجّع القبائل المعتمِدة علىٰ تربية القطعان أو الغزوات علىٰ الدخول في النخاسة المزدهرة والتخلّي، ولو مؤقّتًا، عن الحوم الدائم خلف المصادر الرعوية. ويُفسِّرُ هذا بدوره التوجه القبَلي المتسارع نحو تجارة القوافل واستثمارها في الملح المهاجر إلىٰ السودان. وفي هذا الإطار ظهرت تجارة مجموعات تجكانت وإيدوعلي وكنتة وأولاد بوسباع والسماسيد والأقلال وإيدولحاج وغيرها التي أصبحت تنقل العبيد إلىٰ وسط البلاد وشمالها. وبحكم الطبيعة السلمية لمعظم هذه القبائل، وافتقارِها إلىٰ طبقة حرابية، فإنها كانت تحصل علىٰ العبيد بعد مقايضتهم بالأملاح التي تُسيطر علىٰ نقلها بحكم سيطرتها علىٰ السباخ الملحية والطرق القوافلية الممتدة من تيندوف إلىٰ ولاتة فالسودان.

إذن، أضحىٰ الملح المسافر من أسباب ازدهار تجارة العبيد وفورتها. وقد عاين أتيان بيروز أرباح البيضان والولوف من العبيد عندما كان الأخيرون يُقايضون صفيحتيْن من الملح وحمارًا بثلاثة عبيد[2]. ولعلّ ما أعطىٰ للملح هذه المركزية هو أنه كان يمثِّل نقود التجارة القوافلية. فكانت قيمته متصاعدة وقابلة للاستبدال مع البضائع كافة. وقد أشار زائرٌ للمنطقة في هذه الفترة، هو الحاج شابيني، إلىٰ أنه كان يمكن الربح بالضعف لدىٰ مقايضة الملح بالعبيد. ورغم أن الملح كان يأتي ببضائع أخرىٰ غير العبيد كالعاج والبهار لدىٰ مقايضته في تمبكتو، إلا أن العبيد كانوا أهمّ عوائده. وقد سافر الحاج شاباني نفسه في قافلة تضمُّ ١٥٠ إلىٰ ٢٠٠ جمل تحمل الملح من الصحراء إلىٰ السودان. وقد لاحظ أن العبد، الذي لم يكن يساوي غير عشرة إلىٰ عشرين دوكاتية (عملة أوروبية) في شمال مالي، كان يُباع في المغرب بما بين ٦٠ إلىٰ ١٠٠ دوكاتية[3]. وغنيٌ عن القول أن نقل

(1) Ann McDougall, Salt, Saharans, and The Trans-Saharan Slave Trade, p69.

(٢) نفسه، ص ٦٣.

(3) El Hage Abd Salam Shabeeny, An account of Timbuctoo and Housa: territories in the interior of Africa, London, 1820, vol 1, pp. 27-28.

هؤلاء العبيد كان يمرّ عن طريق الصحراء وبمشاركة النّخاسيين الصحراويين.

ورغم تعدّد عائدات الملح، إلا أن البيضان بدأوا في فرضه مقابلًا ومُستدخِلًا أوحدَ للعبيد، مُشيحين عن بقية الموارد السودانية، التي كانت تُعرَضُ عليهم لقاءه. وفي الستينيات من القرن، عندما سيطروا علىٰ منافذ التجارة الملحية في السودان، فرضوا علىٰ المدن والقرىٰ السودانية التي كانوا يتبادلون معها أسلوب الملح مقابل العبيد. وتُنبِّه آن ماك دوغال إلىٰ أنّ آن رافينيل Anne Raffenel (١٨٠٩-١٨٥٨)، المُستكشِف والكاتب المغامر الفرنسي الشهير، لاحظَ في رحلته في السودان أن البيضاني في كاراتا لم يكن يقدِّم الملح إلاّ لقاء العبيد[١].

لم تكن تجارة الملح، المرتبطة بالعبيد، تنقطع للحظة فقد كانت تتغذّىٰ من مختلف الجهات، مزدهرة بين أقصىٰ شمال الصحراء في واد نون -حيث كانت تحوم قبائل أولاد دليم والركَيبات وتجكانت- إلىٰ الجنوب الأبعد في النيجر ومالي. وكانت تصل سنويًا إلىٰ تمبكتو في قوافل تتراوح ما بين ١٥٠٠ إلىٰ ٢٠٠٠ جمل مثقلة بألواح الملح لتحريك أسواق السودان. ومع منتصف القرن أصبحت تمبكتو رهينة تجارة الملح وبدأت القبائل البيضانية من البرابيش وكنتة إضافة إلىٰ الطوارق في تركيز جهودها علىٰ التجارة مع الجنوب من خلال تحكّمهم في إنتاج الملح ونقله. بل وزادوا في نقل تجارتهم إلىٰ باسكنو بأقصىٰ الجنوب الشرقي بموريتانيا وبانامبا في وسط مالي الغربية بمنطقة كوليكورو الحالية. كانت القرىٰ السودانية أيضًا قد بدأت تزدهر بفعل تجارة ملح الصحراء؛ ففي الستينيات لم تكن قرية بانامبا غير مجتمع زراعي صغير، ولكنها تحوّلت سريعًا إلىٰ مركز تجاري في التسعينيات بفعل اندماج سكانها في مقايضة العبيد وجوز الكولة بالأملاح التي كان يأتي بها البيضان بعد شرائها في نيورو وغمبو من ناقليها ومستجلبيها من السباخ الشمالية. ولقد أضحت قيمة بانامبا، بصفتها نقطة تجارية مرتبطة مع نيورو التي كان بها حضور قوي للبيضان، قيمةً مهمة خصوصًا بعد تدمير باماكو من قبل الحاج عمر[٢].

---

(1) Ann McDougall ((Salt, Saharans,)) p. 68.

(٢) نفسه.

ويبدو أن تجارة العبيد استفادت من المعتقدات المحليّة التي تمّ توظيفها في تصريف العبيد والتخلُّص منهم في الشبكات النخاسية. وقد طُبِّعَت تجارة العبيد ومبادلتهم حتىٰ في المجتمعات المستعبدَة، التي كان بعضها يهرع إلىٰ بيع العبيد في حالات مرضية معيّنة وتصريفهم في قنوات النخاسة. فمثلًا لاحظ الأب دافيد بوالا، وهو فرنسي سنغالي من أم خِلاسية سنغالية وأبٍ فرنسي وقد عاش جلَّ عمره في السنغال، أن مجتمعات الولوف كانت تلجأ إلىٰ بيع من تعتقده مسحورًا من عبيدها إلىٰ البيضان[١].

❀ ❀ ❀

بالطبع لا يعني ازدهار الملح المسافر في السودان أن الصحراء اكتفت بالتبادل التجاري لنقل العبيد. بل كانت وسائل الإكراه والقوّة حاضرة. وقد أشار الحاج شابيني إلىٰ الرعب الذي كانت تبثّه قصص تعبيد البيضان للمفقودين الأوروبيين[٢]، ونعرف منذ أيام مونغو بارك أن مثيل هذا الرعب كان ينتاب ساكنة البلدات المُحاذية للبيضان. وقد كانت قبائل البيضان والطوارق المسلّحة، التي لم تكن تمتلك الأملاح للمقايضة أو تتمرّس في التقاليد التجارية اللازمة، تنظِّمُ الغزوات في عمق البُلَيدات والقرىٰ والمسالك السودانية فيختطِفُ مُحاربوها الأهالي وعابري السبيل لِبَيعهم في باسكنو أو في سوكولو (التي عرفها البيضان باسم كالة)[٣]. وكان الشيء نفسه ينسحب علىٰ قبائل الضفة اليُسرىٰ للنهر من إمارات الترارزة والبراكنة وإيدوعيش، والقبائل التي تحوم في نواحيهم، والتي كان فوارسها يصولون ويختطفون العابرين والفُرادىٰ السود. وغالبًا ما كانوا يفعلون ذلك في حملات مقنّعة، بُعيد مواسم ظعنِهم في الضفة اليمنىٰ. وكان الركَيبات، القادمون من أقصىٰ شمال الصحراء، يقومون بهجمات خاطفة منذ مطلع القرن ويختطفون المدنيين في عموم المنطقة الشاسعة ما بين آدرار وتمبكتو، حيث يقومون ببيعهم في الشمال في واد نون، إلىٰ جانب تجارة القطعان التي أصبحت في هذا القرن تشكِّل ثراءً للقبائل الشمالية.

---

(1) Abbé David Boilat, *Esquisses sénégalaises,* Paris: Karthala, 1984, p. 316.

(2) El Hage Shabeeny, 264.

(3) Ann McDougall, "Salt, Saharans," p. 67.

ولا شكّ أن هذه القبائل الشمالية، برغم بعدها من مصادر العبيد في السودان، كانت تستفيد، وتحتاج كثيرًا، للنخاسة بفعل الإقبال عليها وبفعل عوائدها المدرّة للدخل في المغرب، وهو ما يفسّر مغامراتها الجريئة في الأراضي الأجنبية البعيدة. ولم يغب عن زوار الصويرة المغربية في القرن التاسع عشر ملاحظة أن كثيرًا من سكان هذه المدينة التجارية كانوا من العبيد الذين استُقدموا من السودان الغربي: أي عن طريق الصحراء[1]. وقد ازدهرت تجارة العبيد بمراكش في هذه الفترة بفعل علاقاتها مع موريتانيا والسوان، وكانت النخاسة تمثّلُ ٢٠% من تجارة الصويرة، تاج التجارة المغربية. أما في فاس فقد ترواحت أسعار العبد فيها ما بين ٤٠ فرانكًا إلىٰ ٥٠٠، وأسعارُ الأَمَة ما بين ٥٠٠ إلىٰ ٢٥٠٠ فرانك في الفترة ما بين عامي ١٨٧٤ و١٩٠٤[2].

ويبدو أن الهوس بالظفر بالعبيد أدّىٰ أحيانًا إلىٰ تطبيق مناهج التعبيد والخطف في السودان علىٰ عابري السبيل في الصّحراء نفسها، وأدّىٰ إلىٰ اختطاف بعض أحرار الصحراء وتعبيدهم وبيعِهم. والمرويات الشفاهية للبيضان ثرية بهذه القصص وبالمخاوف التي أودَعتها. فتروي إحداها مثلًا، وهي من تراث إحدىٰ الأسر الشريفية في موريتانيا، أن جَدًا للأسرة تم اختطافه في القرن التاسع عشر من قبل أحد الخاطفين من الركَيبات الذي باعه عبدًا في الشمال، وعندما كان الشريف يستجديه أن يرخي سبيله مستجدِيًا بانتسابه للرسول (ﷺ) فإن الركَيبي كان يقول له: «إذن ادعُ الله ببركة جدّك أن يوفّقَني إلىٰ بيعك بسعرٍ مربح»[3].

ولا شكّ أن الخطف كان ناجعًا وخصوصًا للمغامرين الفرادىٰ. أما المجموعات الغازية فقد كانت، بالطبع، تُخلِّفُ ضجّة أكبر. وغالبًا ما كانت هجمات فوارس التعبيد خاطفة ووخيمة؛ فكان الطوارق يدمّرون قرية بأكملها لقاء

---

(1) Daniel J. Schroeter, *Merchants of Essaouira: Urban Cities and Imperialism in Southwest Morocco,* 1844-1886, Cambridge: Cambridge University Press, 1988, p. 13.

(٢) مصطفىٰ بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب (١٨٦٣-١٨٩٤)، الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٨٤، ج١ ص ٢٩٣.

(٣) قصة من الآثار الشفاهية لإحدىٰ الأسر الشريفية الموريتانية حكاها لي أحد أحفاد الشخص، الذي، حسب القصة، ربح حريته لاحقًا عندما علم أسياده الجدد بأصله ونسبه وشاهدوا تعبده وعلمه.

تعبيد أهلها. أما تقرير غوندو Goundeau الفرنسي، فقد أشار إلىٰ هجمة نظمها أولاد علّوش في عام ١٨٦٥ علىٰ قرية سودانية قاموا فيها بقتل الحماة من الرجال وعادوا بـ٨٩ امرأة وطفلًا وباعوهم في ولاتة. وقد أشار التقرير إلىٰ أنهم كانوا يقتلون الذكور بسبب صعوبة نقلِهم ومقاومتِهم(١). وعلىٰ العموم، فقد كانت عصابات البيضان فيما بعد ربع القرن القرن تتسلّل متفادية العيون الفرنسية التي منعت النخاسة لتنفذ إلىٰ كينغيي وباكونو وكاراتا وبلدوغو، فيهاجمون القرىٰ في صمت الليل البهيم ويقتلون الرجال ويحملون النساء والعبيد ويستاقون القطعان عائدين بهم(٢).

وفي منطقة الضفة كان المحاربون الترُّوزيون والبراكنيون والآدراريون يهاجمون كايور، التي أصبحت تشكِّلُ مخزنًا مهمًا للعبيد وكانوا ينقلون العبيد منها ويبيعونهم في تيريس والمغرب. وكانت هجمات هؤلاء المحاربين عملًا متكرِّرًا، بحيث إنهم وضعوا جميع مناطق أعلي النهر في تهديد موسمي. ويَرِدُ البيضان في حوليات الأسفار الاستكشافية والنشريات الفرنسية طوال القرن التاسع عشر علىٰ أنّهم قوة خطف ورعب في شمال السودان قاطبة. وفي عام ١٨٥٩ أشارت حولية فرنسية إلىٰ أن البراكنة كانوا يهاجمون فوتا كل عام، وأنهم كادوا يفنون منطقة جولوف من سكانها مستعينين أحيانًا بالأهالي من التكرور(٣).

ولعلّ الأوضاع لم تكن درامية في هذا القرن، بل كانت رتيبة بالنظر إلىٰ الممارسات في القرن السابق. كان النبلاء المحاربون المقيمون في الضفة اليُسرىٰ، من التروزيين والبركنيين وإيدوعيش، ما زالوا ينتجعون في الخريف في الضفة اليُمنىٰ تتبُّعًا للأمطار والكلأ. وما إن تحلّ نهاية الخريف ويعزموا علىٰ الارتحال حتّىٰ يقوموا بسرعة بحملات وغزوات علىٰ القرىٰ الزنجية ويأخذوا من

(1) Anne McDougall, ((Salt, Saharans and the Trans-Saharan Slave Trade)) p. 67.

(2) M. Le commandat R. de Lartigue, Notices sur les Maures du Senegal et du Soudan in L'Afrique française: *bulletin mensuel du Comité l'Afrique Française,* Comité de l'Afrique française, 1897, Paris: Comité de l'Afrique Fraçais, Vol 7, p. 43.

(3) Nouvelles annales des voyages 6eme serie m 5eme année, 90-91.

استطاعوا عبيدًا في عودتهم إلىٰ الضفة اليمنىٰ. ويقول إداري فرنسي أواخر القرن إنّهم:

من أجل هذا، فإنهم كانوا يستعيرون قوارب المقاولين ليَعبُروا بها النهر حيث يهاجمون القرىٰ التَعِسة دون تمحيص، فيوقِدون فيها النار و[يُسيلون فيها] الدماء. وهكذا يجهِّزون احتياطهم من العبيد للعام. ولم يكونوا يتردّدون في قتل التعساء الذين كانوا يرفضون مسايرتهم أو الذين كانوا ينتحبون كثيرًا(١).

وإلىٰ جهة الشرق كان أولاد علّوش، فرع من أولاد عرّوك بن أوداي، يستاقون من يُحصِّلونَهم من العبيد إلىٰ باسكنو التي أحكموا عليها سيطرتهم منذ القرن الثامن عشر، وهنالك كانوا يبيعونهم للتجار القادمين من ولاتة حسب مشاهدات أوسكار لينتز في عام ١٨٨٠. وكان كثيرٌ من هؤلاء العبيد يجُلبون غالبًا من وسط إفريقيا، حيث ميّزَ دارس فرنسي في ستينيات القرن بين حراطي البيضان وبين زنوج السنغال؛ فالأوّلون كان سودًا سوادًا كالحًا غير مألوفٍ في السنغال، بحسبه (٢). وكان أغلبهم يأتي من نواحي سوكولو. وهو ما كان يعطي موقعًا مثاليًا لمحاربي أو متاجري الشرق وأرستقراطيات التكرور. فكان الأولون ينظِّمون حملات خطف علىٰ دياغونو ويعودون منها بعبيد لبيعِهم في الحوض(٣)؛ ومن ثَمَّ يتمّ توزيعهم إلىٰ نواحٍ متشعبة في الصحراء. وكان واضحًا أن هجمات البيضان والفلان، المحاربين من البولار، تثقل كاهل باخونو، المعروفة لدىٰ البيضان بباغنة، والتي كانت توجد في شرق جنوب الحوض، فكان يسكنها البامبارا منذ منتصف القرن الثامن عشر. ولكن هجمات القادمين من الحوض أصبحت تتكرّر في منتصف القرن، خصوصًا بعد تغيّر الموازنات السياسية وزيادة اقتصاد النخاسة بقبائل صاعدة(٤). ولم تكن هذه الحملات مؤدلجة دينيًا كما كان غالبًا شأن

(1) Laurent Jean Baptiste Bérenger-Féraud, Les peuplades de la Sénégambie, 118.

(2) François Pierre Ricard , Le Sénégal: étude intime, Paris: Chlamel Ane, 1865, P. 63.

(3) Ann MacDougall, "Salt, Saharans, and The Trans-Saharan Slave Trade," 66.

(4) Timothy Cleaveland, *Becoming Walat*, 39.

حملات المقاتلين الفوتيين الذين شرّعوا ومارسوا تعبيد الوثنيين؛ بل كان ضحايا النخاسة في باغنة أنفسم منحدرين من مجاهدين؛ إذ كانوا من الفوتيين الذين قدموا من الفوتا، وقد تمّ استقطابهم في الحركات الجهادية التي هاجرت إلىٰ المنطقة واختلطت ببقية الفلان في باغنة.

كانت لأولاد امبارك سلطة حمائية علىٰ باغنة التي بسطوا عليها نفوذهم في القرن الثامن عشر، ففي عام ١٧٥٤ بعد مصرع ساغونىٰ أحكم أولاد مزّوك، وهم بطن منهم، نفوذهم علىٰ القرية وقام هنون ولد بَهْدَل بقيادة حرب تمّ بنهايتها إعلانه ملكًا علىٰ المدينة. ورغم أنه ترك الفولبة يسكنون في القرية، إلا أن ابنه، عمر ولد هنون، قد طردهم منها بعد تأمُّرِه[١]. ومنذ القرن القرن الثامن عشر وهجمات أولاد امبارك الاسترقاقية تُسيّر برتابة في عمق السودان. ومع تدهور سلطتهم في منتصف القرن التاسع عشر بدأت عدة مجموعات تخلفهم في الغزوات وحملات التعبيد، ربما كان من أبرزها في وقت معين أولاد علوش ومشظوف.

واستمرّت حملات التعبيد طوال القرن ولم تنهها، وإن خفّفت من أثرها في مجال مُعيّن، الطفرةُ المعلمية فيما بعد منتصف القرن التاسع عشر، وتحديدًا حتىٰ العام ١٨٥٤، عندما تعرّضَ الفرنسيون للغزوات البيضانية والطوارقية بعد بسط نفوذهم علىٰ المناطق المحاذية للنهر، وبعد تحوُّلِهم من محطات تجارية إلىٰ سلطات إدارية واستعمارية لحوض نهر السنغال. بل إن قرارات تحريم التعبيد تعود إلىٰ عشرينيات القرن، وإن لم يعنِ ذلك أن الحملات البيضانية تعثّرت قبل الخمسينيات. وقد ظلّت حاضرة حتّىٰ بداية التسعينيات عندما لم تنفع الحماية الفرنسية في لجمِها، بحيث إن العقيد الفرنسي أرشينار Archinard اقترح خطة دفاعية في (١٨٩٠-١٨٩١) لتشجيع الأهالي علىٰ صدِّ هجمات البيضان وتسليحهم وتدريبهم كحلٍ وحيد لوقف الهجمات[٢].

وفي السودان الشرقي لم تنتقص حدّة هذه الهجمات- وفقط نسبيًا- إلا في ثمانينيات القرن بعد إنشاء الفرنسيين لحاميات صغيرة من خمسة قناصة في كل

(1) Louis Binger, Du Niger au Golfe de Guinée par le pays de Kong et le Mossi, 387-388.

(2) Lartigue, p. 44

قرية زنجية صغيرة وفرضهم لنظام شرطي ومتابعتهم للبيضان المهاجمين، إضافة إلىٰ توقيع اتفاقيات تنهي حملات التعبيد مع أولاد الناصر وكنتة والحيمنات من مشظوف[1]. ولكن توسُّع البيضان في المناطق السودانية استمرّ بعد ذلك بآليات مدنية وحمائية أخرىٰ، مما ساهم في دفع الساكنة السوداء بعيدًا عن مجالاتهم، وخصوصًا في لِعصابة التي اكتمل إبعاد العناصر «السوداء» منها في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر[2].

❀ ❀ ❀

ومن الخطأ اعتقاد أن حملات التعبيد كانت حِكرًا علىٰ الأرستقراطيات العسكرية بالولادة، بل إن التنظيمات الدينية المسلّحة قد أضحت مصدرًا كبيرًا للتعبيد وللنخاسة. فقد كان واضحًا أن أرباح النخاسة كانت مثيرة للألباب، بحيث إنها غيّرت نمط حياة تنظيمات دينية عديدة. ففي البداية بدأت المشيخية الفوتية، المعتمدة علىٰ الزراعة، رافضةً للنخاسة التي كان يغذِّيها دخول الأجانب وبيعهم للناس؛ غير أن حظوظ النخاسة غيّرت من هذا الموقف، خصوصًا بعد وفاة الحاج عمر الفوتي في عام ١٨٦٤. فبدأ أبناؤه في الاستعباد من أجل مقايضة العبيد بالطعام والأسلحة. ومن الخطأ أيضًا الاعتقاد أن كل التعبيد كان فِعل القبائل البيضانية دون غيرِها؛ وفي الحقيقة فإن تعبيد السود في الجنوب لأقربائهم في أيام الحرب والسلام كان العادة الأطول عهدًا والأكثر انتشارًا، وكان هؤلاء يبيعون العبيدَ للقادمين من الشمال من البيضان والعرب[3]. وكما رأينا، فقد كان الاعتقاد المترسِّخ في الذاكرة الجماعية للبيضان هو أن البامبارا والفلان يبيعون أولادهم مقابل الملح، وإن كان ذلك يختزل ضروب التعبيد الأوسع. ولم يمرّ الجهاد الفوتي بدون عسكرة المجتمعات السونينكية في منطقة كيديماغا إذ نرىٰ رجالات السونينكىٰ أمثال فودي محمد الأمين دراما وفودي جاكيلي دراما وفودي غدريس دراما وفودي سيدي سولىٰ وغيرِهم ينخرِطون في الجهاد الفوتي ويتتلمذون

(١) نفسه.

(2) Webb, Desert Frontier, 17.

(3) Ismail Hamet, p. 35.

علىٰ الحاج عمر وابنه شيخو ويغدون عنصرًا مهمًا في الحروب الدينية وفي الجهاد ضدّ الفرنسيين في ثمانينيات القرن التاسع عشر(١).

وفي القرون السالفة كان استعباد المسلمين مسألة مقلقة، حيث فعلت الضغوط فعلها في العالم أحمد باب التمبكتي الذي استصدر رأيًا فقهيًا يبيِّن فيه حرمة استعباد المسلمين(٢). غير أن هذا التحذير كان ضئيل القيمة فيما يتعلّقُ بانعكاساته، وسيتطوّر الاستعباد كمبدأ بين الجنوب والشمال، وخصوصًا بين العناصر المتعادية حيث ستحلّل حركة الفوتيين الصاعدة استعباد أعدائها من أولاد امبارك وحلفائهم، تينواجيوْ.

وإذا كانت النخاسة قد خلخلت البنية الوظيفية للمجتمعات الدينية، فإن هذه الخلخلة لم تقتصِر فقط علىٰ الحياة الزراعية في الجنوب السوداني ولكنها تسلّلت إلىٰ ثنائية المحاربين والزوايا بشكل أوضح في هذا القرن من سابقيه؛ فلقد دخلت القبائل الزاوية في المنطقة الشمالية البعيدة من الاحتكاك مع بقع التعبيد علىٰ النخاسة وتميّزت فيها بشكل ملحوظ. فكانت العناصر التجارية في شنقيطي من إيدوعلي قد بدأت تشتري العبيد بالملح، حسب إشارة لارتيغ. وكانت شنقيطي نفسها، التي كانت بمثابة عاصمة آدرار الاقتصادية، مركزًا مهمًا لتجارة العبيد، رغم أن النخاسة فيها لم تتجلّ إلا فيما بعد ستينيات القرن؛ ذلك أن الرحالة الألماني الشهير هنريش بارت، الذي دخل المجال البيضاني في الخمسينيات، أشار إليها بأنها مدينة خالية من الساكنة السوداء(٣). وكانت مجموعات تجكانت، المتوطّنة في تيندوف، تقدُم في التسعينيات من الشمال القصي جنوب المغرب وشمال الصحراء الغربية مارّة عبر تگانت في قوافل من ٢٠٠٠ إلىٰ ٣٠٠٠ جمل، فتبيع ثمّ تشتري العبيد من بانامبرا وبلدوغو وكينغي وكاراتا(٤). وكان نشاط

(١) انظر مثلًا: علي بوبكر سيسىٰ، تاريخ المجتمع السونينكي في موريتانيا، نواكشوط: المركز الموريتاني للدراسات الاستراتيجية، ٢٠١٢، ص، ٦٤-٨٥.

(٢) نفسه، ص ٣٩.

(3) Henrich Barthes, *Travels and Discoveries in North and Central Africa,* New York: Harper and Brothers, 1857, vol 3, p. 537.

(4) Lartigue, p. 44, p. 49.

الأقلال قويًا بحيث أسّسوا قوافل بآلاف النوق منذ منتصف القرن.

كانت مدينة تيشيت أيضًا قد بدأت في الاستثمار في النخاسة. وقد نهضَ الأمر بعوامل خارجية؛ إذ كانت المدينة أصلًا مستراحًا تجاريًا تستقرُّ بها قوافل الملح القادمة من سباخ الجل. وقد بدأت التجارة التيشيتية، التي تعثّرت لفترة، تستأنف ازدهارها مع تزايد هذه القوافل. وقد انخرط التيشيتيون في نقل الملح عبر الخط التجاري الذي يمرُّ من تيشيت باتجاه ولاتة ثم إلىٰ أروان، حيث يتفرّعُ إلىٰ النعمة أو باسكنو متجّهًا إلىٰ النيجر عن طريق نيورو وجارا ومورجان وبانامبا أو خط نيورو إلىٰ السنغال العليا المتجِه إلىٰ الغرب، والذي كان يمرُّ عن طريق مَدينَة Medine وكانوا يعودون من الخط نفسه بالعبيد. والواقع أن هذا النشاط التيشيتي لم يكن جديدًا؛ إذ تحدّث مونغو بارك قبل قرابة قرن ويزيد عن ملح تيشيت، الذي كان يعني به الملح القادم من كدية الجل(١)، ولكن القرن التاسع عشر كان ذروة استدخال ذلك الملح للعبيد.

ولعلّ أكثر معالم تغيير النخاسة للوظيفية القبائلية كان استثمار عناصر الشرفاء فيها؛ فـ «**الشرفة**»، المعتمدون علىٰ وضعيتهم الشرفية التعفّفية في المجتمع البدوي، بدأوا في الانخراط في تجارة العبيد، وكانت قوافلهم تحاذي قوافل أولاد بلّة وهي تغدو ذهابًا وإيابًا بين تيشيت والسودان(٢). ولقد تزامن انخراط **الشرفاء** في النخاسة مع تصاعُدِ نفوذهم في ولاتة في القرن التاسع عشر، حيث رجَحت موازين القوىٰ إلىٰ كفَتِهم بدلًا من كفة لمحاجيب، المسيطرين سابقًا(٣). أما في الجنوب فقد حدث التغير الأبرز في هذا المجال عندما تشكّلت مجموعات من الحراطين ناشطة في بيع العبيد.

وبقدرِ ما دخل الزوايا في النخاسة بقدرِ ما دخل المحاربون في تجارتِها، بدلًا من مجرد جانبِها الحربي. وقد دخلت علىٰ الخطّ المجموعات التي كانت تعتمد علىٰ البداوة والترحال وفرض المكوس بنشاط، فقد أصبح البرابيش عنصرًا نشطًا

(1) Ann McDougall, "Salt, Saharans, and the Trans-Saharan Slave Trade", p.68

(٢) نفسه، ص ٦٨.

(3) Cleaveland, p. 84.

في تجارة الملح ومقايضته بالعبيد، إضافة إلىٰ أن شقًا منهم كان يختطِفُ العبيد بالقوّة والإكراه. وربما كانت هنالك علاقات بين غزواتهم وتجارتهم. لقد بدأ صعودهم التجاري في الخمسينيات، ولكنهم سينخرطون في هذه التجارة بنشاط في العقود اللاحقة إلىٰ التسعينيات، حيث ساهموا في جعل تجارة أروان تقوم مقام تجارة تمبكتو التي انهارت في هذا القرن بعد إقامة المراكز البديلة التي أنشأها الفوتيون بعد تدمير تمبكتو.

❀ ❀ ❀

أما عندما كان العبيد يدخلون في مجال الصحراء، فإن ديناميكيات أخرىٰ كانت تعمل علىٰ مباشرتهم ومعاملتهم؛ ففي الشمال كانت المجموعات المقاتلة التي بدأت تنتظم في الأنشطة التجارية المدرة للدخل في إطار الربط بين المغرب والصحراء كأولاد بوسباع يُحقّقون أرباحًا من بيع الجواري، رغم أنها لم تكن أساس تجارتهم(١). كما أن كثيرًا من الركَيبات تحوّلوا من تجارة القطعان إلىٰ الاستثمار في بيع العبيد في جنوب واد نون. وكان في المجال الشمالي أولاد دليم وتجكانت وتجار تكنة، ولكنهم، بعكس قبائل الوسط والجنوب، لم يضطرّوا إلىٰ استخدام الملح للحصول علىٰ العبيد، وذلك بعد أن كان العبيد يصلون بالفعل إلىٰ داخل البلاد من خلال الشبكات المتاجرة في الجنوب؛ ولذا كانوا يقايضونهم بالبضائع الدارجة في تجارة الشمال كالأقمشة والحبوب والإبل، حيث كانت إبل الشمال في تيرس معروفة بجودتها. وهكذا كانوا يهبطون طريق الكصور الممتَدّ جنوبًا من شنقيطي إلىٰ ولاتة مرورًا بتيشيت، حيث يقومون بهذه المبادلات التجارية(٢). وبهذا المعنىٰ، فقد كانت النخاسة محفِّزًا علىٰ التجارة البينية وثراء الطبقة التجارية في عموم الصحراء؛ إذْ كان النظام التجاري الصحراء يعامل العبيد علىٰ أنّهم بضائعُ تُلِدُ أو تُقايَض ببضائع أخرىٰ.

لا يمكن تجاهل الوفرة من العبيد كملمحٍ أساسي للحياة الموريتانية في القرن التاسع عشر، فلقد غيّر هؤلاء نمط الحياة اليومية عندما كانوا يُستَخدَمون في القيام

---

(1) Pierre Bonte, *Essai sur la formation tribales,* p. 145.

(2) Ann McDougall, "Salt, Saharans and the Trans-Saharan Slave Trade" p. 70.

بالأعمال اليومية، الرعوية أو الزراعية، كما بدأ إدخالهم في الحياة المنزلية ليتحمّلُوا الأعباء اليومية عن النساء الحرائر، فكانوا، وخصوصًا الإماء منهم، يطحنّ الشعير ويصفِّينه من الأعشاب حسب مشاهدات رينيه كاييه. أما العبيد الرجال فكانوا يقدِّمون الغذاء اليومي ويَرْعَوْن القطعان لأسيادهم ويَرِدون الماء للاستخدام المنزلي(١). ولقد سمح هذا للأسياد بتوسيع مجالات حياتهم اليومية، ففي القرن التاسع عشر كتب لارتيغ أن البيضان يتأفّفون من الزراعة(٢)، ولكن توفّر العبيد في الكصور والمدن فسحَ المجال لكثير من ملاك الأراضي في استصلاح الأرض وزراعتها تحت إشراف الملاّك. واستطاع البيضان بهؤلاء التعويض عن غياب الحبوب في حياتهم.

وقد قسّم لارتيغ عبيد البيضان إلىٰ عبيد البيوت، الذين كانوا جزءًا من الحياة العائلية من العوائل البيضانية وقارّين في مضاربهم، وعبيد المكاتبة الذين كانوا يُستخدمون في الزراعة والإرساليات البعيدة أو الرعوية وكانوا يقيمون غالبًا خارج المضارب. هؤلاء كانوا يتلقون معاملات قاسية وكانت آثار الجلد والضرب تبدو دومًا علىٰ جُلودِهم(٣). وهي معاناة وثّقَها أيضًا كاييه فيما يخصُّ ظروف سكنهم، حيث كانوا يُحشرون في أمكنة ضيِّقَة جدًا. وفي المناطق الزراعية في البراكنة كان خمسون عبدًا منهم يُحشرون في خمسة عشر كوخًا(٤). وبطبيعة الحال، فإن هذه الظروف كانت تختلف باختلاف المكان. وقد لاحظ زائر للترارزة في عام ١٨٦٠ أن معاملة العبيد في المزارع في منطقة لَحْرَش لم تكن سيئة، باستثناء أنّهم لم يكونوا يتوفّرون علىٰ الغذاء الكافي(٥).

ولا شكّ أن الهشاشة الغذائية للعبيد كانت تشتدّ في أوقات الجفاف؛ إذ لم يكونوا أولوية في التغذية الشحيحة أصلًا، ما كان يُعرِّض حياتهم لخطر شديد.

---

(1) René Caillié, p. 158.

(2) Lartigue, p. 43.

(3) Lartigue, 43.

(4) René Caillié, p. 54.

(5) Léon Fabert, "Voyage dans le pays des Trarzas et dans le Sahara Occidental," *Bultein de la société de géographie,* Paris, Septembre, 1892, tome 13, P.386.

وكانوا، هكذا، علَفَ المجاعات والكوارث وضحاياها الأوائل، فمثلًا في عام ١٨٣٣-١٨٣٤ المعروف في تواريخ البيضان في منطقة الشرق بـ «**عام شرواكَة**»، أي «عام الشر» أو «عام البؤس»، ضرَب شرق البلاد جفافٌ قوي فمات فيه «خلقٌ كثير» أكثريتهم من العبيد[١]. بيد أن الأسياد في البراكنة كانوا يوفِّرون لعبيدهم الزراعيين طعامًا، عكس ما كانوا يفعلون لبقية الطبقات الملحقة المستقلّة علىٰ حدٍّ بعيد كالصناع واللحمة والفنانين، كما كانوا يُعطونهم عطلة يومَيْن في الأسبوع، الثلاثاء والجمعة. وكان كثير من العبيد يستخدمون هذه العطلة في تحصيل أموالهم الخاصة، مستفيدين من العطل لجمع الصمغ، الذي كانوا يكوِّنون به ثروة تسمح بتحريرهم بالمكاتبة. وبطبيعة الحال، فإن هذا النوع من التحرّر لم يكن أكثر أنواع التحرّر من العبودية ذيوعًا[٢]، ولكن حالات أخرىٰ من التحرّر كانت قائمة كالعتق أو التسريح، أحيانًا لدواعٍ عَطْفية من قبل الأسياد وأحيانًا بعد عجزهم عن الإنفاق علىٰ العبيد، وبالطبع كانت تذيع حالات الأبق والنجاة من نير الرِّق.

وقد سمح امتلاك العبيد للقبائل البدوية والرعوية أن تدخل المدن وتستقرّ في ظل الضمان الغذائي الذي أمّنَه الخدم المزراعون؛ فقد أفلح أولاد علوش، الذين كانوا يقودون بأنفسهم حملات الغزو في الجنوب، في استخدام العبيد في زراعة الحبوب في المناطق الواسعة في عدوة تيشيت-ولاتة، المعروفة باظهر، حيث كانوا يجوبون المجال في إطار تنقلهم الرعوي. كان وادي ولاتة خصبًا، ولم يكن ينقصُه إلاّ عمال زراعيون. وفي سنوات الفصول المطرية كان يصلح لزراعة الحبوب والبطيخ (فُندي)[٣]. كما أن مشظوف، الصاعدين بشكل ملحمي في هذه الفترة بعد إزاحتِهم لأولاد امبارك وأولاد داوود ولقلال والفوتانكة، بدأوا مع منتصف القرن التاسع عشر في استخدام العبيد في زراعة سهول باسكنو والمناطق الواسعة في فلوات منطقة اظهر. كانت علاقاتهم متشعِّبة مع الفوتانكة، وكان تغلغلهم الحرابي والتجاري إلىٰ السودان متكرِّرًا؛ لذلك كان حصولهم علىٰ العبيد أمرًا مألوفًا.

---

(١) أبو بكر بن أحمد الولاتي، منح الرب الغفور، ص ١١٥.

(2) Poulet, p. 9.

(3) Cleaveland, p. 84.

ولقد تطوّر استخدام العبيد في الزراعة سريعًا خصوصًا في عموم مجال وسط وجنوب «تراب البيضان»، ففي الترارزة والبراكنة دفع مُلاّك العبيد بهم إلىٰ شمامة الخصبة وحوّلوهم من خدمِ عوائل إلىٰ عبيد زراعيين[1]. وكان الأمير أحمدو، أمير البراكنة، يُرسل عبيده لزراعة الدُّخن (بشنة)، فكانوا يُرابطون وقت الحصاد في الحقول تحت إدارة «رهط من المرابطين»؛ لتعهُّدِ المحصول وجمعه ثم العودة به إلىٰ المضارب. كما كان العبيد أيضًا يُوظَّفون في غابات الأبيار والفتّاك في جمع الصمغ في ديسمبر تحت رقابة مشدّدَة من طرف البيضان، فتُمنحُ لكلٍّ منهم حقيبة جلدية وأحذية تقيه الأشواك، فيشرع في جمع الصمغ وانتزاعه من أشجاره ويعود به لأسياده. وكان الزوايا بلبراكنة أيضًا يوظِّفون الجاريات غالبًا في جمع الصمغ في إحدىٰ القرىٰ التي وصل إليها رينيه كاييه[2]. وفي عام ١٨٥٦ جزم فرانسوا بيير ريكارد أن الأسرىٰ السود الذين يُجبِرهم البيضان علىٰ جمع الصمغ كانوا الأتعس من بين جميع العبيد؛ إذ كان يُعبّدون ليس لأغراض خدمية بسيطة، وإنّما تجارية مُضنية[3]. وإلىٰ الشمال كان الآدراريون يستخدمون عبيدهم في حرثِ الذرة والأرز، منتجين منهما ما يكفي للمقايضة بالقماش الغيني والبنادق مع تجار البراكنة[4]. وفي الشمال الأبعد في واد نون إلىٰ درعة كان الحراطين يعملون في الزراعة في أرض تكنة[5]، رغم أن حراطي تكنة كانوا جزءًا مهمًا من القبيلة ولم يكونوا مجرد ملحقين بها.

وفي المناطق المحاذية للنهر كان البيضان الزوايا يُوظِّفون العبيد في تحصيل الذرة التي يحرثونها في نوفمبر ويحصدونها في أواخر مايو فتكفيهم مؤونتهم إلىٰ يوليو، وكان البعض يقوم بادخارها إلىٰ فصل الصيف، وقتَ شحِّ الأمطار. أما المحاربون فكانوا يعتمدون في تحصيل الذرة علىٰ الأزناكَة، وهم مُلحقوهم،

---

(1) Ann McDougall, "Salt, Saharans, and the Trans-Saharan," p. 73.

(2) René Caillié, pp. 53-54, p. 59, pp. 134-135, pp. 135-137.

(3) François Pierre Ricard, p. 85..

(4) René Caillié, p. 148.

(5) Pierre Bonte, Essai, p. 145.

وبمعنىٰ ما مُنخرطون معهم في عقد تبعية عسكرية و/أو انتسابية، أكثر من استخدامهم للعبيد[(١)].

وفي مجال الواحات أعطىٰ دخول العبيد الزراعيين دفعًا للزراعة وساهم في تنويعها من زراعة التمور إلىٰ زراعة الحبوب؛ فقد بدأ كنتة وإيدوعلي، الذين لاحظ ولد ابن المقداد، المستخبِر للفرنسيين عن أحوال البيضان، في عام ١٨٩٤ أنهم يزرعون القمح والشعير في نواحي تجكجة[(٢)]، بتوظيف العبيد في الواحات التي يسيطرون عليها في تگانت. ويبدو أن الزراعة قد ازدهرت في تگانت والركَيبة في هذه الفترة، حيث كانت الحقول الخصبة تُنتج سنويًا محاصيلَ وافرةً من الدُّخن من سهول باركيول وأفطوط والطرطيكُة وفرواجة وأشرم وآدريريم تگانت[(٣)]. وربما كان كنتة من استقدم تقنيات استخدام العبيد في الزراعة؛ إذ كانوا يقومون بهذا في السودان، حيث كانوا قوة أساسية بفعل نفوذهم المشيخي وحضورهم كمجتمعات تجارية متنفِّذه، فكان عبيدهم يعملون في زراعة المحاصيل وتعهُّدها في أريبيندا Aribinda في فوتا العليا، التي كانت من أخصب الأراضي في مالي[(٤)]. وربما استنسخوا هذا النمط في تگانت من أتباعهم في السودان. وفي الفترة نفسها سيظهر العبيد في الواحات في آدرار. ولقد شهد القرن التاسع عشر في آدرار إصلاحات زراعية مهمة ليس فقط من قبل ملاك الواحات، بل من السلطة الأميرية نفسها عندما أشرف الأمير امْحَمّد ولد أحمد علىٰ إصلاحات «الكَرارات» والأراضي الخصبة وواحات النخيل وأنظمة السقي مما حسّن من مستوىٰ الإنتاجية الزراعية[(٥)].

ومن الراجح جدًا أيضًا أن تكون أولىٰ مؤشرات استخدام العبيد في الزراعة قد تشكّلت في الجنوب الشرقي، حيث كان التجار البيضان يتاجرون مع قبائل

---

(1) René Caillié, pp. 117-119.

(٢) رحلة ولد ابن المقداد، في: محمدو بن محمذن، وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة، نواكشوط: جامعة نواكشوط، ٢٠٠٠، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) نفسه، ص ١٥٠.

(4) Ann McDougall, "Salt, Saharans, and the Trans-Saharan," p. 73.

(٥) بيير بونت، إمارة آدرار، ص ٨٣-٨٨.

الماراكا في بلدوغو وسيغو في هذه الفترة. بل إن اقتصاد الماركا وتطوُّرهم جاء أساسًا من تجارتهم بالمواد الزراعية مع البيضان. وبفعل هذا، فإنهم طوّروا كثيرًا من العبودية الزراعية، وكان بعضهم يمتلك ٧٠٠ عبد يعملون في مزرعته. وكانوا ينتجون أكثر المحاصيل الزراعية جودة، وكانت القوافل الولاتية والتيشيتية تأتي لهم بزبنائهم الدائمين(١).

وكان من تداعيات استقدام العبودية الزراعية أنها غيّرت وظائف أصيلة في مجتمع البيضان عندما فتحت عينه علىٰ آفاق جديدة للأرباح والغذاء. فكما رأينا قد جعلت مأسسةُ العبوديةِ الزراعية عزوف البيضان عن الزراعة لا ينعكس سلبًا علىٰ استفادتهم من المحاصيل. وبدأت قطاعات واسعة من تجكانت في أرض الگبلة بالاشتغال بالزراعة جنبًا إلىٰ بقية الفخذ الذي كان أيضًا يعمل في تربية القطعان(٢)، كما سمح هذا بالتقليل من الطلب علىٰ الزراعة الجنوبية؛ فأصبحت قطاعات بيضانية واسعة تعتمد علىٰ المحاصيل المحليّة لتلبية حاجياتها. وكانت الجاريات يقمن بطحن الحبوب وتهيئة الأغذية اليومية حتىٰ القرن العشرين، حيث أصبح تردّد الحراطين بين المناطق الزراعية والمناطق الخلفية من المسكن جزءًا أساسيًا من الحياة البيضانية حتىٰ ما بعد الاستقلال في ستينيات القرن العشرين.

ولم تكن استخدامات العبيد تقتصر فقط علىٰ الإنتاج الزراعي أو علىٰ العمل في المضارب بل استُخدِموا في الأنشطة التجارية والأمنية فكان الآدراريون يرسلون العبيد لمرافقة قوافلهم من آدرار إلىٰ تمبكتو(٣). وفي المناطق المحاذية للضفة كان العبيد سببًا في الثراء الجديد للمجموعات المحاربة والمتاجرة. وكما رأينا، فقد كان يُوظّفون في التقاط الصمغ للتجارة، كما لا حظ رينيه كاييه منذ عشرينيات القرن التاسع عشر. وأحيانًا كان هؤلاء العبيد يُستخدمون في الحرب، غير أنه كان أمرًا نادرًا رغم أن الحراطين الأحرار كانوا دومًا ما يقاتلون إلىٰ

---

(1) Cleaveland, p. 100.

(2) Lartigue, p. 49.

(3) Ann McDougall, Salt, *Saharans, and the Trans-Saharan* Slave Trade, p. 75.

جانب الأمراء الذين يفرضون عليهم بعض المغارم لقاء الحماية. وكانوا يسارعون إلىٰ الحرب مع هؤلاء دون رغبتهم كما يجزم بوليه(١).

❁ ❁ ❁

لا يعني تدفُّق آلاف العبيد السود أبدًا أن كلّ السود كانوا عبيدًا؛ فبغض النظر عن أرستقراطية البولار في نواحي كيهيدي وكيدماغا وفي سهول غورغول إضافة إلىٰ مجتمعات المزارعين الأحرار في البراكنة ومقامة وكيدماغا، فقد كانت شريحة الحراطين تصل إلىٰ تكوينات قبلية وشبه قبلية مستقلّة ومتمتّعة بحريّتها ومتميّزة، تاريخيًا وفئويًا ونسبيًا، عن العبيد المملوكين(٢). وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت وضعية معظم الحراطين التابعين للقبائل وضعيةً بين الحرية والعبودية. فكانوا يختلفون عن العبيد في أنه لم يكن يحقُّ بيعهم، كما أنهم كانوا يتمتّعون بحق عصيان السيد، ولم يكونوا عبيدًا مستجلَبين، بل كانوا مجتمعًا من **الموالي** والمولّدين من أبناء الزيجات والتسري مع الجواري أو كانوا أبناءَ العبيد المُعتقين(٣). وأحيانًا كانوا العبيدَ الذين مكثوا طويلًا مع أسيادهم، فاكتسبوا وضعًا شبه عائلي فتمّ إعتاقهم(٤)، كما هو حال الخادمة العجوز المُعتَقة التي عرفها رينيه كاييه في البراكنة وأصبحت تعيش وحدها معتمدة علىٰ جمع الصمغ وبيعه. وفي الترارزة كان وضع قبائل الحراطين المستقلّة وضعًا سياديًا معترفًا به، وإن كانت تتمتّع بحماية الإمارة والقوىٰ المحاربة.

وفي أحيان معينة كانت صفوة الحراطين الأحرار قوة ضاربة وذراعًا من أذرع الإمارة عرفوا بـ «**الترارزة الكحل**» أو «**الخالفة الكحلة**»، التي كانت تستند عليها قبيلة أولاد أحمد بن دمان، الأسر الأميرية في الترارزة. ولم تكن «**الخالفة الكحلة**» من العبيد، بل كانت من الحراطين الأحرار قديمًا، الذين عُرفَ نظراؤهم

---

(1) Poulet, p. 6.

(2) Ibid., pp. 5-6; René Caillié, p. 158.

(3) Laurent Jean Baptiste Bérenger-Féraud, Les peuplades de la Sénégambie: histoire, ethnographie, moeurs et coutumes, Legendes, etc, Paris: Ernest Leroux, 1879, p. 72; René Caillié, p. 98.

(4) Ismail Hamet, p. 47.

في مناطق أخرىٰ بـ «**نانمة**» (وإن يبدو أن نانمة كانت جيلًا عُبِّدَ أولًا فيما بعد الفترة الوسيطة واكتسب وضعية شبه استقلالية قبل الاستعباد الحديث) أو بـ «**الموالي**» كتمييز لهم عن الحراطين المستجلبين والمستعبدين. وكانوا في حقيقةِ أمرهم متداخلين عرقيًا مع القبائل العربيّة الحسانيّة. بل ولم تكن تشكيلات عزّونة، المنسوبة غالبًا للحراطين، غير «اختلاط عرقي» قد «ذابت فيها مجموعات زنجيّة وصنهاجية قديمة»[١]. وقد بقي أكثر الحراطين في مجال الأمراء إما قوة ضاربة أو قبائل متحالفة. ومهما يكن من أمر، فإنهم أصبحوا أساس قوة الأمراء ونواتهم العسكرية؛ فمثلًا مع نهاية القرن التاسع عشر لم يكن أولاد أحمد من دمان بالكثافة العددية التي تفسِّرُ وحدَها سيطرتهم علىٰ عموم الترارزة، فلم يكن البالغون منهم في يوليو عام ١٩٠٢ يصلون إلىٰ ١٦٥ شخصًا، ولكنهم كانوا يعتمدون علىٰ القوة الضاربة من الحراطين، حيث كان يتبع للمختار الشرغي وحده ١٠٠٠ حرطاني مسلّح[٢]. وكان كثير من هذه الشريحة ينخرطون في الأنشطة البيضانية، بل إن بعضهم كان يبيع العبيد. أما الكثيرون، إن لم يكن الأكثرية، فكانوا ينخرطون في الخدمات الصغيرة كالنقل والتجارة الصغيرة في السنغال، كما كانوا يقومون بالزراعة المأجورة (ما سمّيناه **بالقنانة**) في المناطق التي يمتلكها الزوايا[٣]، إضافة إلىٰ مرافقة القوافل لتأمينها. وكانت فئات منهم تعيش علىٰ الرعي وسقي الإبل[٤].

إلا أنه إذا كان الحراطين، المختلفون عن العبيد، قد حظوا بحريتهم الشخصية، فإن حريتهم العامة بقيت دون ذلك. وقد بقوا طبقة من «**الموالي**»، وهي الصفة التي أطلقها عليهم مثقفو الصحراء في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهي الصفة التي تظهر لهم في تاريخ سيدي ولد الزين في مطلع القرن العشرين، كما نجدها عند أبي بكر بن أحمد المصطفىٰ الولاتي (ت ١٩١٧)، مؤلِّف **منح الرّب الغفور**. وكمَوالي العصر الإسلامي الأول، فقد كان أغلبهم

---

(١) ولد السعد، الإمارات والنظام الأميري الموريتاني، ص ٥٢.

(2) Poulet, p. 18.

(٣) نفسه، ص ٦.

(4) Ismail Hamet, p. 87.

طبقة تحتاج إلىٰ الحماية وتقع تحت نفوذ الأسياد والقبائل وتدفع المغارم في هذا الإطار، وكانت نسبتهم وأنسابهم هي إلىٰ حُماتهم أو مُعتقيهم دومًا كما كان من العرف أن يقدِّموا خدمات بلا مقابل لهؤلاء[١]. ومع ذلك، فقد كان من الجلي أن الحراطين تمتّعوا باختلاف تامٍ عن العبيد الكثر في الصحراء؛ ذلك أنهم كانوا أقرب منهم إلىٰ مقامات البيضان والتدرُّج فيها. وقد استطاع بعضهم التعلُّم بل وبلوغ مرتبة العالم، كما كان شأن الفقيه عبد القادر بن سيد أحمد بن انْبار، الذي توفي في عام ١٨٣٠-١٨٣١ وقد ألّفَ شرحًا علىٰ كتاب **نفح الطيب** وآخر علىٰ **طرة ابن مهيب**، وكان بحسب مؤرخ ولاتة «عالمًا، فقيهًا، نحويًا، لغويًا»[٢]. وبشكلٍ عامٍ، كانوا يتمتّعون بالحرية التامة في ممتلكاتهم، عكس كثيرٍ من **الأزناكَة واللحمة**؛ ولهذه الأسباب فإنهم كانوا أعلىٰ منهم اجتماعيًا بسبب تقدّم وضعيتِهم عليهم في الاستقلالية والملكية. ولذا فإن الحراطين كانوا قادرين علىٰ التزاوج مع **الأزناكَة** ومع العبيد، ولكن هؤلاء لم يكونوا قادرين علىٰ التزاوج مع الحراطين؛ لأنهم كانوا دونهم اجتماعيًا[٣].

❋ ❋ ❋

بيد أن الحراطين والعبيد لم يكونوا كل الفئات الملحقة، بل لم يكونوا أساس هذه الطبقة. فقد كان لبُّ الملحقين هم **الأزناكَة** الذي عرفوا أيضًا بـ «**اللحمة**». ومن الجلي أن تمفصلًا مفهوميًا وتصنيفيًا قد أصبح راسخًا في هذه الفترة، وما قبلها، بين صنهاجة وأزناكَة. فقد غدا الأخيرون بقايا القبائل المحاربة أو تلك المستضعفة التي أُلحِقت بالقوة وسُخِّرَ أهلُها لصالح القبائل المنتصِرة (وهو أمرٌ تعتبر معظم دراسات البداوة الارتحالية أنّه معلمٌ في حياة الرعوية القتالية بشكل عام)[٤]. وفي أرستقراطية الصحراء كانوا يقومون بدور يشبه دور الأقنان في الإقطاعية الغربية، حيث كان إلحاقهم رأس مالٍ مهمًّا للقبائل المتسيِّدة، التي

(١) نفسه، ٤٩.

(٢) الولاتي، منح الرب الغفور، ص ١١١.

(3) Poulet, p. 10.

(٤) انظر مثلًا ملاحظات بيري أندرسون في الموضوع:

Perry Anderson, *Passages from Antiquity to Feudalism,* London: Verso, 1978, p. 221.

كانوا يُسيّرون في ملاحمها، وكان يمكن للأسياد بيع حقِّ إلحاقهم لأسياد آخرين، محاربين أو زوايا. ولهؤلاء الأسياد كانوا يدفعون مغارم سنوية، إضافة إلىٰ أنه كان من حق هؤلاء فرض مغارم إضافية عليهم وقتما ما حلا لهم ذلك. ويقول لنا أمدو ممادو با، في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، متحدِّثًا عن المجال الآدراري، الذي وصفَه أيضًا بالسائب، يقول إن **اللحمة** «كانوا يُستَنزَفون دون وازعٍ؛ ذلك أن رأي أولاد الجعفرية [أولاد عمَنّي وأولاد آكشار] هو أن تلك الطبقة الاجتماعية قد خُلِقت خصِّيصًا لإشباعِ حاجاتِهم وأطماعِهم»(١). ومع ذلك، فإن كثيرًا منهم كانوا يتمتّعون باستقلال جغرافي؛ إذ لاحظ رينيه كاييه في زيارته للبراكنة أنهم كانوا يسكُنون بمعزلٍ عن بقية السكان(٢)، وربما تعلّقَ الأمر بانتفاء أسباب التجنيد وعلائقه التي كانت خلفَ إلحاقِهم، أو تعلّقَ بحالة مَعزِل أو «**غيتو**» أو مساكنة عصبية أو إنتاجية من قِبلهم. ومهما يكن من أمر، فإنهم، وإن نجوا من ملازمة أسيادهم، إلا أن أنهم كانوا دومًا في ظلِّهم وفي كنفِهم وكانوا لصيقين بهم كما يدل علىٰ ذلك مصطلح «**اللحمة**». كما أن ممتلكاتهم كانت تعتبر نظريًا، وربما نظريًا فقط، ممتلكات أسيادهم.

وفي حالة ابتعاد الملحقين عن أسيادهم في شؤون التجارة والزراعة كان حقّ تأدية المغارم السنوية للأسياد يبقىٰ ثابتًا، ولم يكن يسقط غالبًا بالتقادم أو بالبُعد أو بالمكاتبة، بعكس العبودية التي كان يمكن أن تسقط بالمكاتبة أو بالشراء والافتداء. وفي بداية القرن العشرين ذكر أمير الترارزة، أحمد سالم ولد اعلي (١٨٩٦-١٩٠٥)، قيمة الملحقين بالنسبة إلىٰ الأسياد فقال إنهم «بمثابة خمسة فرنكات بالنسبة إلىٰ الأوروبيين»(٣)، يصف ضروريتهم، وربما اعتياديتَهم، بالنسبة إلىٰ الطبقة المقاتلة.

ولكن **الآزناكَة**، من حيث هم شعوب كادحة، كانوا يجدون فرصًا كبيرة في

(1) Ahmedou Mamadou Ba, "L'Emirat de l'Adrar Mauritanien de 1872à 1908" *Bulletin Trimestriel de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran,* Mars, 1932, Tome 53, p. 85.

(2) René Caillié, p. 63.

(3) Poulet, p. 7.

الصعود الاجتماعي بفعل عملهم الدؤوب. في عشرينيات القرن كانوا في وضعية سيِّئة، فقد وصفهم شاهد عيان بأنهم «الأتعس من بين كل البيضان»؛ ذلك أن كلّ أسرة منهم كانت تؤدِّي غرامات كثيرة لأسيادها الإقطاعيين هي عبارة عن بقرة وقدح من السمن أو نصف برميل من الذرة وقدح من السمن وبعض الجلد المدبوغ[1]. إلا أن أحوالهم تحسّنت في السنوات التي لحقت هذا، فكان منهم الملاك الصغار الذين امتلك بعضُهم مِائتي جمل ومائة وخمسين من الأبقار وقطعان الغنم كما انخرط كثير منهم في التجارة[2]؛ رغم أن كثيرًا منهم كان يعمل في رعي الإبل للقبائل الزاوية[3]، مُشكلين بذلك «البجاويين» أو الرعاة.

وبالنظر إلىٰ عسكرة الحياة العامة التي ربما تزايدت في قرون الجفاف والتمدّد إلىٰ المجتمعات الزراعية والتِّجارية الجنوبية، فإن الاقتصاد الحرابي أتاحَ فُرصًا للصعود الاجتماعي للمُلحقين، وكان بعضهم مقاتلًا ومن أهل القوة والبأس، وقد عدّد جورج بوليه من هؤلاء لمزازكَة والرحاحلة[4]، وإن كان صاحب الوسيط يُنبِّه إلىٰ أن وضعية الرحاحلة أكثر تعقيدًا، علىٰ الأقلِّ في تصوّراتِهم وفي تقديماتِهم. وفي البراكنة بدأت وضعية الملحَقين في التحسن إلىٰ وضع شبيه بالاستقلال، وهو أمر بدأ في ستينيات القرن الثامن عشر بسبب الخلافات في الإمارة، ولم يعد بمقدور الأمراء فرض إرادتهم علىٰ الأزناكَة، الذين أصبحوا في وضعية خيارٍ سياسي بين تحويل ولائهم إلىٰ أمراء أكثر قوة من هذا الجانب أو ذلك واستخدام ذلك للتحرُّرِ من نير أو ضيم أو تغريم الأسياد. أما في مجال الحوض في منتصف القرن فكما لاحظنا سابقًا، فإن هذه كانت الفترة التي حوّل فيها بعض المُلحقين ولاءَهم من أولاد امبارك إلىٰ مشظوف في ظلِّ الحروب الدامية التي استعرت بين الطرفين. ونتيجةً لهذا التحسُّن العام في الوضعية السياسية لبعض الملحقين، فإنه كان يتمُّ تلطيف الطابع الحمائي الذي كان يُفرض عليهم وتتمُّ صياغته في

(1) René Caillié, p. 152.

(2) Poulet, p. 8.

(3) René Caillié, p. 102.

(4) Poulet, p. 8.

المجاملات الاجتماعية؛ وكان يُقالُ بشكلٍ عام إن إتاوات **الأزناكَة** والمزارعين السود في البراكنة تعطىٰ كإشارة صداقة وليس كضريبة(١).

رغم هذا، كان صغار **الأزناكَة** يتعرّضون لصنوف مختلفة من القهر والإذلال من قِبل أفواج المحاربين الذين كانوا يسلبونهم ما لديهم ويسومونهم العذاب(٢). أما الأزناكَيات فكن يُوظّفن مرضعات لأطفال القبائل السيّدة خصوصًا عندما يبقىٰ الطفل في عهدة الأب بعد الطلاق(٣). وكان هذا يأتي في إطار عملهن كنساء منتجات يقمن غالبًا بجميع أنواع الحِرف، باستثناء الحدادة؛ فكنّ ينسجن الخيام ويدبغن الجلود، ويصنعن الصابون من الودك الحيواني رغم أنه كان صابونًا سيئًا حسب تقييم رينيه كاييه(٤).

❁ ❁ ❁

كانت طبقة الصناع التقليديين المعروفة **بلِمْعَلمين** تعتبر أيضًا جزءًا من الطبقة المُلحقة، وإن بتأطير اجتماعي مختلف عن بقية الملحقين. كان في كلِّ قبيلة وافرة مجموعة خاصة بأعمال الحدادة والنجارة، يُقدِّمُ أفرادها خدمات في غاية الأهمية للحياة الصحراوية؛ فكانوا يُنتِجون الأسلحة الخفيفة كالخناجر والسيوف والسهام والأواني الخشبية **(القدحان)** كما كانوا يصنعون المواد الترفية التي ارتفعت قيمتها في هذا القرن كالغلايين والولاّعات، وكانوا يعامِلون وينتجون المواد النحاسية(٥)، التي كانت تدخل أحيانًا في الأنشطة التجارية مع السودان. أما الحديد، الذي كان أساس عمل نخبة خاصة منهم، فكانوا يستخرِجونه من الحجارة السوداء بواسطة الأفران التي تحفر مسافة قدم في التراب أو كانوا يستوردونه من الفرنسيين في السنغال(٦). وفي أوساط هؤلاء «المعلمين» كان ينضبط تقسيم عمل بين الحدادين والخصّافين والإسكافيين، الذين كانوا ينتجون

---

(1) Webb, Desert Frontier, p. 23.

(2) René Caillié, p. 142.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص ١٥٤.

(5) Poulet, p. 6.

(6) René Caillié, p. 110; Mungo Park, p. 150.

الأحذية والخواتم الجلدية[١]. ولهذه الأسباب، فإن كل حيّ أو مضارب «**افريگ**» أو «**فخذ**» من القبائل الحرّة كان يضمُّ حداديه وحِرفييه الذين لم يكونوا غالبًا إلاّ أسرة واحدة تعمل لعموم المجمّع أو «**لفريگ**»؛ فمع مطلع القرن العشرين كان هنالك عشرة من «**لِمْعلمِين**» نصفهم نساء عند أهل الإمام، البطن البارز في قبيلة إيدوعلي، وذلك مقابل خمسة وثلاثين من العبيد والإماء وثمانين من الموالي (الحراطين). وكان العدد نفسه من «**لِمْعلمين**» يوجد أيضًا عند أولاد أبوهم، الفخذ العلوي الآخر. وربما كان يتبع لأهل محم عاشور، الفخذ العلوي الآخر، بتجكجة أكثر الصناع: سبعة عشر «**امْعَلَم**»[٢].

وفي مجال المحاربين غالبًا كانت توجد طبقة ملحقة هي **الإيغاون** أو المغنون. وبحكم الطبيعة الغنائية والتمجيدية لأعمال هؤلاء، فإنهم لم يكونوا يدفعون المغارم بل كانوا يحصلون علىٰ الهدايا من الأمراء. بل إن إيدوعيش كانوا يدفعون مكافآت عينية عن كلٍّ منهم لمغنيهم، الذين كانوا لسان فخرِهم وجهازهم الدعائي[٣]. ورغم أنهم كانوا معزولين ولم يكونوا يتزوّجون خارجَ دائرتهم الخاصة، إلاّ أن قيمتهم المعنوية والتشجيعية كانت كبيرة خصوصًا للمُحاربين؛ إذ كانوا يرافقونهم إلىٰ ساحة المعركة ويحفِّزونهم علىٰ القتال بموسيقىٰ «**فاقو**» الحماسية المعزوفة علىٰ **التيدينيت والآردين**، العود الصحراوي، الأول للرجال والثاني للنساء. وبالطبع لم يكونوا يدخلون المعركة إلا بعد انقشاع الغبار، وكان نشاطهم التحميسي يجري علىٰ بعدٍ من ميدان القتال[٤]. كما أنهم صنعوا لنفسهم سطوة بفعل قدرتهم علىٰ الهجاء وتلطيخ السمعة، ولقد جعلتهم هذه السطوة الأدبية يحصّلون مواردهم بامتهانِ المدح والهجاء، ما جعلهم يحقِّقون عوائد مهمة من القطعان والمطايا. وعندما شاهد رينيه كاييه أعمالهم، فإنه وصفهم بأنهم «يمتلكون قدرة علىٰ موهبة الإقناع»[٥].

❀ ❀ ❀

---

(1) René Caillié, p. 125.

(٢) ولد الزين، كتاب النسب، مصدر سبق ذكره، ص- ٨، ١٢، ١٦.

(3) Poulet, 9.

(٤) نفسه.

(5) René Caillié, p. 94-95.

ومهما يكن من أمر، فإن النظام الصحراوي كان حريصًا علىٰ التمييز الفئوي، وقد نقل فرنسوا ريكارد أن البيضان كانوا يحرصون علىٰ التمايز الطبقي حتىٰ في ساحة المعركة؛ فلم يكن الأمير يبارز غير أمير، ولم يكن الصريخ يواجه غيرَ صريخ، ولم يكن الحداد يواجه غير حداد(١). وكان هذا تجليًا لثقافة قوامها النديّة والكفؤية والنظرائية ظلّت ضاربة في الثقافة ومتغلغلة فيها. بيد أن تراتبية المجتمع الصحراوي لم تكن مصنّفة في شكلٍ واحدٍ جوهراني ولاتاريخي، ولم تتعلّق التراتبية حصرًا بالتصنيف العرقي أو النسبي بل أيضًا بديناميكيات السلطة والثقافة. ولم تكن هذه أشياء جامدة أبدًا. وقد تنوّعت تصنيفات المجتمع البيضاني مرارًا. فمثلًا كان التقسيم البديهي للمجتمع البيضاني بالنسبة إلىٰ الكثيرين ممن خبروه هو بين ثلاث فئات: المحاربين والتجار والمرابطين أو رجال الدين المتعلمين(٢).

ورغم أن إدماج التجار في تصنيف النظام الطبقي يبدو غريبًا علىٰ بيضان القرن العشرين والحادي والعشرين، الذين تمدرسوا علىٰ تقسيم مجتمعهم القديم إلىٰ زوايا وعرب وعبيد وحرفيين ومغنين، إلاّ أنّ له منطقًا عامًا، وكان جزءًا من تحولات كبيرة تشهدها المنطقة. فقد رأىٰ بعض مؤرِّخي المنطقة أمثال أي جي هوبكينز أن القرن التاسع عشر شهد تحوُّلَ غرب إفريقيا من اقتصاد ما قبل حداثي إلىٰ اقتصاد حداثي متمثِّلٍ في الانتقال من النخاسة إلىٰ تصدير الصمغ العربي والفول السوداني وزيت النخل(٣). وفي هذا الإطار نمت في الصحراء شرائح تجارية كبيرة منخرطة في أشكال رِبحية وتبادلية جديدة. وربما لا يمكن أخذ نظرية هوبكينز في نمو التجارة التصديرية علىٰ حساب النخاسة علىٰ علاتها؛ لأن النخاسة كما رأينا ظلّت مهمة في اقتصاد الصحراء في هذا القرن، بما فيه التجارة التصديرية نفسها، إلا أن التحولات التجارية كانت تؤدي قطعًا إلىٰ تحوّلات اجتماعية مهمة. وقد غيّرت، بما فيها النخاسة، من الحياة الموريتانية في القرن

---

(1) François Pierre Ricard ,p. 91.

(٢) انظر مثلًا انطباعات مؤرخَي السودان الفرنسي، الفرنسييْن أوغست لوي وشارل غاتيليه في كتابهما:
Auguste Louis Charles Gatelet, *Histoire de la conquête du Soudan français (1878-1899)*, Paris, 1899, p. 5.

(3) A. G. Hopkins, *An Economic History of West Africa* (London,: Longman, 1973).

التاسع عشر وغيّرت بنية العائلة والتراتبية، سواء في البادية أو في الكصور.

ولعلّ أهم انعكاسات هذا كان تشكيل طبقة خاصة مستقلة في المجتمع مختصة بالاستثراء من التبادل والمقايضة. ولقد تدفقت جلّ قبائل الصحراء للاستثمار في هذا الانتعاش الجديد للتجارة. وبدورها أيضًا غيّرت التجارة من بنية القبائل وأدوارها الوظيفية فيما قبل القرن التاسع عشر. ويمكن القول بشكل عام إن تجارة البيضان مع السنغال كانت تصل إلىٰ عشرة ملايين فرنك فرنسي نصفها من تجارة العلك والجلود والنحاس، ولكنها تتضاعف إذا نظرنا إلىٰ بقية السودان وربما وصلت إلىٰ عشرات الملايين حسب تقديرات لارتيغ[1]. أما تجارة الشمال الوافرة فلم تقع في هذا الحساب، وهو ما يعني أن التجارة في عموم الصحراء كانت تعود بأرباح هائلة.

كان يمكن تقسيم تجارة القرن التاسع عشر إلىٰ تجارة كبيرة وأخرىٰ صغيرة. التجارة الكبيرة كانت التجارة الجماعية للقبائل التي كان أفرادها وعوائلها يتعاونون في تسيير قوافل تتراوح بين مئات إلىٰ آلاف الإبل التي تحمل البضائع وتقايضها بأخرىٰ، فتؤوب بأرباح كبيرة من الطريق القوافلي. في الحالة العامة كانت هذه التجارة الكبيرة هي نشاط المدن الكبيرة، ويمكن القول إنها كانت تزدهر أكثر في أوساط قبائل تكنة والأقلال وإيدوعلي وإيدولحاج وكنتة وتجكانت. غير أن القرن شهد الدخول المنظم لقبائل أولاد بوسباع والركَيبات وأولاد علّوش وأهل سيدي محمود ونحوهم. وأكثر من هذا، فإن القبائل المحاربة كمشظوف وأولاد امبارك وإيدوعيش، قد دخلت علىٰ التجارة الكبيرة فحقّقت عائدات كبيرة من بيع العبيد والعلك وامتيازات الحماية.

وكمثال علىٰ نشاط هذه التجارة الكبيرة وأرباحها، فإن مجموعة الأقلال ازدهرت بشكل وافر بعد منتصف القرن. فكانت قوافلهم تحوم في منطقة مجالها مئات الكيلومترات ما بين الجنوب إلىٰ الشرق نحو الحدود الجزائرية حاليًا. وكانت نهضتهم شاهدًا علىٰ ازدهار تجارة الملح، فأصبحت قوافلهم تتوغّل حتّىٰ تيشيت حيث تشتري الملح ثم تنتقل به إلىٰ بانامبا عن طريق سيغو. وبختام القرن

---

(1) J. de Lartigue, p. 43.

كانت تجارتهم قد حقّقت غنًى ملحوظًا بين أفراد القبيلة المستقرّة في شنقيطي. وفي عام ١٨٩٧ بلغت هذه التجارة أوجها عندما استطاعت القبيلة تهيئة قافلة أكبر من كلّ قوافل القبائل الأخرىٰ مجتمعة وسارت بها للسودان للتجارة(١).

ولم يكن هذا غير مثال لما تفعله بقية القبائل، التي استفادَ معظمها من مراسلين من التجار علىٰ طول الخط التجاري الكبير. فبالنسبة إلىٰ قبيلة إيدوعلي كان تمركزهم في آدرار وتگانت وشمال لِعْصابة يساعدهم في تسيير القوافل حتىٰ الجنوب، فاستطاعوا استيراد قوافل غنية إلىٰ تگانت وآدرار وأصبحوا بدورهم مصدرًا للقبائل المتاجرة من الشمال كتكنة الذين توطدت منهم نواة في شنقيطي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. أما كنتة فكان توطّدُهم القديم في السباخ وسيطرتهم الروحية في تمكبتو ونواحي أروان وانتقالهم إلىٰ تگانت، يسمح لهم بإثراء علاقاتهم التجارية علىٰ طول خط آدرار-سيغو. وفي الشمال استفادت قبيلة تجكانت (التي وصلت قوّتُها التجارية إلىٰ حضورٍ قوي لمراسليها في تگانت)(٢) والركَيبات من سيطرتها علىٰ مجال تيريس الواسع ونواحي الساقية وتيندوف، فأصبحت تعمل علىٰ ربط المغرب بالصحراء واستفادت من بيع العبيد وتمريرهم إلىٰ المغرب، الذي كان في طلب كبير عليهم. وبفعل ترابطها مع الشمال أصبحت قادرة علىٰ تزويد الصحراء ببضائع غير متوفِّرَة في الجنوب، كالشاي والبرنس وغيره من الثياب الشمالية.

كانت القوافل في حدِّ ذاتها تعاضديات وأحلافًا سياسية. وكانت تتراوح بين تلك التي تتكوّن من ثلاثة آلاف ناقة وجمل إلىٰ تلك التي تضم المئات أو العشرات. وقد سافر رينيه كاييه شمال تمبكتو في قافلة من ٦٠٠ جمل ومن ولاتة إلىٰ الشمال في ١٤٠٠ جمل و٤٠٠ رجل(٣). وكانت العشائرية والقبلية هي التي تسمح بتحديد هوية هذه القوافل، وكان يمكن بسهولة معرفة الهويات

---

(1) Ann McDougall, "Salt, Saharans, and the Trans-Saharan," p. 70-71.

(٢) رحلة ولد ابنو المقداد في: محمدو بن محمذن، وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة، نواكشوط: جامعة نواكشوط، ٢٠٠٠، ص ١٤٤-١٤٩.

(3) Ismail Hamet, p. 58.

التجارية الجديدة كما كان شأن قوافل السواكر والدواليت والشرفة ومسومة والقلالمة والطالب المختار وتاغنيت التي كانت مألوفة في جنوب شرق البلاد(١).

كانت معظم القوافل الكبيرة تحمل كميات كبيرة من الملح، الأساسي بيعه في اقتصاد الصحراء، وبالإضافة إلىٰ جلب الأملاح للعبيد والمواد الثمينة فإنها كانت عامل توظيف ومصدرَ معيشة للآلاف. كما أن صفيحة الملح المعروفة بـ «**العديلة**» كانت بمثابة نقد الصحراء مثلها مثل «**المخزومة**»، وهي قطعة من القماش الغيني بمقدار معيّن(٢). كانت سباخ الملح الكبيرة تقع غالبًا في ملكية القبائل التجارية الكبيرة التي كانت توظِّفُ بها الاستخراجيين علىٰ مدىٰ قرون. وكان ملاّك القوافل الكبيرة في الشمال أنفسهم يتموّنُون من سباخ تيريس الممتدّة ما بين خمسة وعشرين إلىٰ ثلاثين كيلومترًا عرضًا واثني عشر كيلومترًا طولًا، وكانوا يصدِّرون الملح منها علىٰ طول الخط التجاري إلىٰ آدرار وتگانت، حيث يوجد مراسلوهم وحيث تقعُ منطقة التوزيع بتيشيت. ثمَّ بعد ذلك كانت القوافل تنحدر من تلك المناطق إلىٰ كاراتا وبامبارا وماسينا(٣). وكان كنتة يواصلون نقل الأملاح من تيشيت حتىٰ باماكو حيث يسيطرون روحيًا(٤). وبشكل موازٍ لهؤلاء كانت قوافل تجكانت الكبيرة القادمة من أعالي تيريس تبيع الملح في بانامبا وتقايضه بالعبيد. ولكي تفعل هذا، فإنها كانت تستورِد الملح من ودان وشنقيطي وولاتة وأروان(٥). وكانوا يَسيرون في قوافل تتراوح ما بين ٢٠٠٠ إلىٰ ٣٠٠٠ ناقة وجمل، وكانوا قوّةً ضاربة تصل إلىٰ ٤٠٠٠ من المشاة و١٠٠٠خيال(٦)، وهي قوة عسكرية كانت أكبر كثافة من قوة الإمارات في الجنوب. من الواضح أن الملح أتاح قوّةً ومعيشة لمجموعات قبلية كثيرة، كإيدوعلي وتجكجة مثلًا، الذين يُخبِرُنا أحدُ مؤرِّخيهم أن مصدر معيشتهم كان تجارة الملح وحمله إلىٰ السودان علىٰ

---

(1) J. de Lartigue, p. 45.

(٢) انظر مثلًا: الولاتي، منح الرب الغفور، ص ١٠٥.

(3) Ismail Hamet, p. 56.

(4) R. de Lartigue, p. 50.

(٥) نفسه، ص ٤٩.

(٦) نفسه.

طول الشتاء إلىٰ أن يحلّ فصل الخريف فيشتغلون في الحراثة[١].

بالطبع لم تكن التجارة مجرّد مجالٍ مفتوحٍ لكلِّ أحد؛ بل كانت مسرحًا للتنافس، الذي لا يمكن عزله عن حروب الصحراء الكثيرة. فمع ابتداء عشرينيات القرن بدأت القبائل المحاربة في الاستثمار في التجارة وخصوصًا في تجارة العلك. ومع عهد الأمير محمد لِحبيب في الترارزة - الذي اعتبر الشيخ سيديا باب أنه كان أول من اهتمّ من الأمراء العرب بالاكتناز - بدأ اقتصاد الأمراء يتحوَّل ببطء إلىٰ اقتصاد ادخاري بدلًا من الاقتصاد التوزيعي الذي يعتمد علىٰ تبذير الأعيان للموارد لاستبقاء الأتباع. ويبدو أن هذا شجّع علىٰ الاستثمار في التجارة. وعندما دخلت الإمارة التروزية في التجارة، فإنها بدأت في المواجهة الاستراتيجية مع قبيلة وصفها مصدر فرنسي بأنها مستقلّة في الترارزة هي إيدولحاج[٢]. كان إيدولحاج من أوائل الممارسين لتجارة العلك، حيث كان لاقطوهم يحصدون كميات كبيرة من الصمغ من غابات الأبيار ويبيعونه للفرنسيين، وقد أسّسوا مرسىٰ تجاريًا علىٰ بعد مائة كيلومتر من سان لويس يدعي **دارماكور** (سيتحول اسمه لاحقًا عند الأوروبيين إلىٰ **ريتشارد تول)**، غير أن عام ١٨٣٦ شهد عزّ تنافسِهم مع إمارة الترارزة، التي قرّرَ أميرها توجيه ضربة تجارية لهم وذلك عندما تفاهم مع الفرنسيين علىٰ إقامة محطة تجارية في لواخ، علىٰ بعد ستة كيلومترات من روصو، بدلًا من محطة كَاية البعيدة. وقد كان لهذا التحويل أثره، فقد فقدت محطة إيدولحاج قيمتها التجارية بعد هذا العام[٣].

وحاول محمد لحبيب أيضًا ضرب إمارة البراكنة بمركز كَاية، ولكن الإمارة الجارة ظلّت المصدر الأساسي للصمغ بمعدل مليون ونصف إلىٰ مليوني ليرة منه، ثم تليها إمارة الترارزة بقيمة تتراوح ما بين ١٢٠٠٠٠٠ إلىٰ ١٥٠٠٠٠٠ ليرة، أما محطة إيدولحاج فقد أصبحت تترنح بين ٣٠٠٠٠٠ إلىٰ ٥٠٠٠٠٠ ليرة سنويًا[٤].

---

(١) ولد الزين، كتاب النسب، ص ٤.

(2) Ancelle, p. XIV.

(٣) فرانسوا كاي، في: محمدو بن محمذن، وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة، نواكشوط: جامعة نواكشوط، ٢٠٠٠، ص ٨٩-٩١.

(٤) نفسه، ص ٩١-٩٢.

وفي شرق هاتين المحطتين كانت تجارة إيدوعيش وأولاد الناصر وأولاد امبارك ومشظوف وأولاد داوود تجسِّدُ الدخول الحساني في التجارة، حيث كانوا يُسَيِّرون القوافل إلىٰ محطات باكل وأسواق أروان وتمبكتو ويعودون منها بالقماش الغيني والبضائع الثمينة، كما كانوا تجار عبيدٍ بفعل طبيعتهم الحرابية. أما أولاد علّوش، وأولاد داوود عمومًا، فقد بدأوا يستقرّون ويصبحون سكان حضر في باسكنو وبدأوا يقطنون البيوت الحضرية وبيوت القصب ويتخلّون عن الغزو والنهب ويتاجرون مع سوكولو ومَدينة[١].

ومن المهم أن نعرف أن الدخول الدرامي الحساني لتجارة الصمغ كان جديدًا في الثلاثينيات؛ إذْ في العشرينيات كانت جلّ تجارة الصمغ في البراكنة في أيدي الزوايا غالبًا، الذين لم يكونوا يدفعون الضرائب وكانوا يجمعون الصمغ كافة ويذهبون به إلىٰ الضفة اليمنىٰ وما بعدها لبيعه ثم يعودون بالقماش الغيني والبنادق التي يتاجرون بها في الداخل، ويذهبون أحيانًا إلىٰ عمق آدرار حيث يقايضون بالمواد الزراعية كالتمر والقمح[٢]. وبالطبع لا تعني سيطرة البراكنة والترارزة علىٰ تجارة الصمغ أن كلّ عائدات محطاتهم كانت لهم دون بقية القبائل، فهذه العائدات لم تكن إجمالية لقوة واحدة بقدرِ ما كانت مفتوحة للأغلبية؛ ولكن استفادتهم واستثمارهم فيها من خلال بسط نفوذهم علىٰ حقولها ومن خلال حماية التجارة كان نوعًا من دخول التجارة غير مألوف.

❁ ❁ ❁

علىٰ أن ما أسميناه بالتجارة الكبيرة من تجارة القوافل أو المحطات لم يكن جلّ النشاط التجاري الصحراوي، بل لعلّ أهم معالم القرن التاسع عشر كان في فرص التجارة الصغيرة التي نمت علىٰ هامش الرأسمالية الوافدة إلىٰ السواحل والأنهر الصحراوية؛ فأصبح بمقدور الرعاة والصيادين التوافد علىٰ القناطر وبيع بضائع كثيرة لها وللمدن النابعة منها. وساهم هذا بوفرة في خلق فردانية تتعلّق بتحصيل الأفراد -المستقلّين عن الشراكة القوافلية- للموارد لبيعها وتحصيل قوت

(1) J. de Lartigue, p. 57-58.

(2) René Caillié, p. 148.

أو رأسمال بها. ولم تكن هذه الأنشطة الفردية الصغيرة، النامية على هوامش تجارة الملح والصمغ التي تعمل فيها القوافل العشائرية الكبيرة، تتناقضُ في موادِها مع التجارة الكبيرة، بل كانت تستغلُّ الموارد نفسها التي تعتمد تلك عليها. ففي ميدان استخراج الأملاح كان يتوفّر سوق داخلي تعمل فيه مجموعات عشائرية صغيرة وأفراد معزولون. فمثلًا كان أفراد مجموعة آغزازير يشترون الملح من عناصر تجكانت العاملين في الملح في سباخ الجل[1]، كما أمكن لمجموعات تندغة وكمليلن وانتابو وتاشدبيت وتاكَونانت أن يلتحقوا بما وراء النهر بمواشيهم حيث كانوا يزوّدون السودان والفرنسيين بالمواد اليومية كالسمن واللبن وغيرها من المواد[2]. وكان تجار آدرار يأتون بالبقر والضأن والخيل والزبدة والتمر[3]. وقد وصف سيدي محمد بن الشيخ سيديا أولاد دليم بأنّهم «...أناسٌ جلّ عقدهم بيع الملاقيح وبيع المضامين»، يقصدُ بها ما على ظهورِ الإبل وما في بطون إناثِها[4].

ومع ستينيات القرن التاسع عشر ستكون هذه التجارة مهمة للبلدات والمدن السودانية، بحيث إن بلدة بودور السنغالية ستصنع جسرًا خاصًا يسمح لمجموعات البيضان، بما فيها القوافل، عبور المجاري والجداول لبيع موادهم إليها[5]. وهكذا، هرع التجار الصغار والوحدانيون إلى المجتمعات المستقرة والوافرة التي وطّدَها الاستعمار في الضفة اليمنى وعملوا في تخوم تلك القرى مزوِّدينَ وتجار تجزئة، وهو النشاط الذي سيُعرَفُ **بالتقسيط**. وكانوا عمومًا أساس المجتمعات المهاجرة إلى السودان. وخلافًا لما قد يتبادر، فلم يكونوا مجرّدَ مُتمدنين وسكان الكُصور، وإنما كثيرًا ما كانوا بدوًا ومنّمين ورعاة تحوّلوا إلى مزوِّدين للمتمدنين بحاجاتهم من الحليب واللحوم والقشدة والسمن. وفي والو وكايور وباوول كانت مجموعات البيضان الصغيرة هذه تشكِّل أساس تجار البقر، حيث كانوا يستقدِمون

(1) Ann McDougall, "Salt, Saharans, and the Trans-Saharan," p. 75.

(2) Ancelle, pp. xiv-xv.

(3) J. de Lartigue, p. 45.

(٤) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، ص ٢٧٤.

(5) Fleuriot de L'Angle, "Croière de la côte d'Afrique", *Le Tour Du monde: Nouveau Journal des voyages,* Paris: Librairie Hachette,1872, vol 23-24, p. 330.

ويُرَبُّون الأبقار الصحراوية ذات السنام، التي كانت تختلف كلية عن أبقار السودان التي لا سنام لها. وكان من ميزة أبقارهم أنها كبيرة وطويلة تزيد علىٰ المتر ونصف المتر، وتتراوح أوزرانها ما بين ٥٠٠ إلىٰ ٦٠٠ كلغ. وفي نواحي باكل، المحمية من قبل إيدوعيش، كان صغار المنمين البيضان يأتون بسمن النعاج المعروف لديهم بـ «**الدهن**». ومرّةً أخرىٰ كان تميّزُ بضاعتِهم عن البضاعة المحليّة أساس تجارتِهم. فقد ميّزَ فرانسوا بيير ريكار بين سَمن باكل البيضاني وسَمن غالام المألوف في مناطق الضفة اليمنىٰ، الذي كان سمنًا نباتيًا أقل قيمة[١].

لعل أهم فرص التجارة الصغيرة كانت الصمغ، الذي كان بإمكان كل شخص تقريبًا جمعه والذهاب به إلىٰ المحطات التجارية وبيعه فيها. وسيُعرف هذا النشاط بـ «**التعليك**». ورغم أن تجارة الصمغ لم تكن، من منظور المحطات التجاريّة علىٰ ضفة النهر، كافيّة وحدَها لضمان أرباح المحطّات، وكانت متقلقلة وتتعرّضُ للضرائب القاسية من الإمارات والرئاسيات البيضانية[٢]، إلاّ أن **التّعليك** كان فرجة كبيرة للاقطين الفرادىٰ. ولم يغب علىٰ دارسي المحطّات التجاريّة السنغاليّة التنافس الشديد بين البيضان علىٰ توريد الصمغ[٣]. وقد سمح هذا للناس من القبائل الجنوبية كافة، شرقًا وغربًا، بالتموّل. ويُمكِنُنا القول إن الفرص التي أتاحها **التّعليك** وبيعه قد غيّرت الهوية الإنتاجيّة والنشاط الاعتيادي لمجموعات سُكانيّة بأكملها. فقد لاحظ هنري بارت أن أفراد قبيلة تنواجِيو كانوا يلتقطون العلك ويبيعونه للفرنسيين في باغنة[٤]. كما أنه صار مقصدًا للقبائل التي بَطَلت أنشطتها الحرابية؛ فكان أولاد الناصر أيضًا يبيعون الصمغ والملح بعد تقويض هجماتهم علىٰ السودان[٥]. وكانت قبائل تگانت تبيع الصمغ في مدين ونيورو بمالي، أما قبائل البراكنة والترارزة وإدوعيش فكان أفرادُها يبيعونه في المحطات

---

(1) François Pierre Ricard, p. 39

(2) Alain Sinou, *Copmtoirs et villes coloniales du sénégal: Saint-Louis,* Gorée, Dakar, (Paris: Karthala, 1993) p. 81.

(٣) نفسه.

(4) Barthe, 3, p. 711.

(5) J. de Lartigue, p, 55.

الفرنسية في المجال السنغالي[١]. ومع التحوّل الدرامي لقبيلة أولاد ابييري إلىٰ التجارة بدأ أعضاؤها يستخدمون ممتلكاتهم الأرضية في شمامة لبيع الصمغ في بودور[٢]. ورغم ميل المصادر الفرنسيّة إلىٰ مقاربة باعة الصمغ في إطارِ هوياتِهم القبليّة، إلاّ أن نشاطهم كان غالبًا فرديًا، وإن لم يكن دومًا ممكنًا دون غطاء وتعاون جماعي، ولا شكّ أنّه كان مصدرًا لتعزيز الملكية الفرديّة وتحدّي التلاحم العشائري في التجارة.

ورغم أن معظم هؤلاء الباعة، الذين أفضوا إلىٰ استقرار موسمي وأحيانًا طويل الأمد في السنغال، كانوا فردانيين في أعمالِهم إلاّ أنّهم قدِموا في إطار شبكات معرفية جعلت لحضورِهم في السودان بعدًا قبليًا. فكان ثمّة حضور مهمٌ لقبيلة كُمْليلن في كايور، أما في سان لويس فكان حضور ملموس لقبيلة تَنْدغَة، التي كان أفرادها يعملون في خدمات توفير الحليب والسمن. وكان حضور أيدولحاج، الذين كانوا أول من باع العلك للأوروبيين، شائعًا في المنطقة السنغالية كمجتمع مهاجر، بحيث إنهم في السنغال اكتسبوا اسمًا خاصًا بهم هو **درمانكو**؛ وهو الاسم الذي ظلّ لويس فيدرب، المتوطّد بسان لويس، يشير به إليهم في كتاباته حتىٰ سبعينيات القرن التاسع عشر. وفي هذه المحطات كان يُشاهد الشراتيت وهم يمارسون تجارة الخيل والضأن والدُّخن الذي كان يُزرع بشكل وافر في هذه الفترة في سهول تگانت ويتمُّ تصديره إلىٰ السودان. وكانو قبل ذلك يبيعون العبيد لسكان الضفة اليسرىٰ غير أن هذه التجارة تراجعت كثيرًا، إن لم تكن كسدت، ولم تعد حتّىٰ آمنة بأواخر القرن. كما كانوا يقايضون تلك البضائع بالقماش الغيني والسكر والبنادق والذخيرة[٣]. ولا شكّ أن هذه التجارة الصغيرة كانت خلاصًا للجماعات المُفقّرة والمضطهدة التي كسَبَت حريتها أيضًا منذ أمد. وقد وجد الآزناكَة و«**الموالي**» الحراطين في المجال السنغالي فرصًا كثيرة للتجارة، حيث يعدُّ جي

(١) نفسه، ص ٤٦.

(2) C. Stewart, "Southern Saharan Scholarship", p. 82.

(٣) رحلة ولد ابنو المقداد في: محمدو بن محمذن، وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة، نواكشوط: جامعة نواكشوط، ٢٠٠٠، ص ١٤٤-١٤٩.

أنسيل في الجماعات المتاجرة فيما وراء النهر جماعة زمبتي الحرطانية والمستقلة[1].

كان للصيادين دورهم في التجارة الصغيرة. ويبدو أن صيد السمك تراجع كثيرًا بعد أفول مجتمعات الشرمية القديمة، رغم أن صياديه من قبيلة أولاد بوسباع كانوا يصطادونه في سواحل انغاجو والشيل[2]. كما أن التقاليد المحكية تُحيل إلىٰ دورٍ حيوي شبيه لتندغة في سواحل المحيط الأطلسي. ولعلّ أشهر صيد الصحراء في هذا القرن كان بريًا، وكانت مجتمعات الصيادين البيضان تبذل جهودًا بطولية في مطاردة وقنص النعام والأسود في الب راري. وقد اشتهر أولاد امبارك، ولكن ليس وحدَهم، بأنهم صيادو غزلان ونعام مهرة. وقد وفّرت المحطات فرصة لتحويل الصيد إلىٰ تجارة. وكان الفرنسيون مقصد هذه الطرائد. فقد ذكر فرانسوا بيير ريكارد أن البيضان كان يأتون دائمًا بجلود الأسود، مع جلود الأبقار، ويبيعونها لهم في القناطر علىٰ ضفاف النهر. وعندما استعلم الفرنسي عن أساليب صيد الأسود عرفَ أن للبيضان طريقتهم الاحترافية في صيدها، وأنهم لم يكونوا يقتلونها بالبنادق خوف فساد جلودها، بل كانوا يقتلونها بالعصي ثمّ يسلخونَ جلودها:

> عندما يَسْمعون نُباح الكلاب وحركة القطعان يعلمون أن الأسد دخل في قطيع البقر، فيقوم جميع رجال المخيم بالإحاطة بالمسرح، مُسلَّحين بالعصي الكبيرة والصغيرة. ويقوم الأسد، الدائخ بسبب الضجيج والمنافذ الضيِّقة بسبب تواجده وسط الأبقار الهائجة، بالبحث عن مخرج من منافذ القطعان؛ وما إن يَنْفُذَ من مكان حتىٰ يتلقّىٰ ضربة بالعصا علىٰ وجهه فيتراجع حتّىٰ يسقط بين الضربات[3].

❁ ❁ ❁

وبفعل نمو فرص التجارة الصغيرة والكبيرة توطّدَت علاقاتٌ وشبكاتٌ من المراسلين والمهاجرين التي عملت علىٰ توسيع شبكات التجارة، وصارت الهجرة

---

(1) J. Ancelle, p. xv.

(2) Fabert, p. 390.

(3) François Pierre Ricard, p. 49.

التجارية معلمًا من حياة الصحراء. فقد وصل أعداد البيضان في نارا، إلىٰ ٤٠٠٠ بيضاني من أصل ١٣٠٠٠ ساكن، أما في غَمبو فقد وصلوا إلىٰ ٥٠٠٠ ساكن من أصل ٣٥٠٠٠، وفي سوكولو كان يقيم ٥٠٠٠ بيضاني من أصل ٣٠٠٠٠[١]. ولا شكّ أنّ هذه المدن، وخصوصًا تلك التي منها في منطقة كوليكورو المالية، التي ضمّت سوكولو وبنمبا ونارا، وهي بُليدات ومدائن ظلّت أليفة عند البيضان المهاجرين بحيث إنهم عرفوها بأسماء محلية؛ ذلك أنّ نارا أو فوتَنّي كانت بالنسبة إليهم هي **النوّارة** أم غمبو فكانت **كَمبُ** وكانت سوكولو لديهم هي **كالة**، أما باخونو فكانت **باغنة**، وكانت باكل هي **بكّل** ...إلخ. وفي السنغال كان هنالك الآلاف وخصوصًا من قبائل الترارزة العديدة. وفي الشمال كانت هنالك هجراتٌ ونزوحاتٌ سياسية بفعل الحروب غالبًا، ولكن التخاطر التجاري كان أمرًا شائعًا كذلك.

وبطبيعة الحال، كانت الهجرة في غالبها متعلِّقة التجارة، ولكنها تعدّت، في نتائجها، التجارة إلىٰ أواصر الالتحام الكثيرة؛ فكانت أعداد المهاجرين تتوزّع في عدة أنشطة تجارية واجتماعية ودينية. وكان في المهاجرين التجاريين المجموعات الدينية التي كانت، من بين أشياء أخرىٰ، تُسهِّلُ العلاقات العامة وتُدرِّس. وكان المشايخ الكنتيون ينزلون تمبكتو بصفتِهم سُلطَةً روحيّة للقادرية، وقد كوّنوا بها نواةً مشيخية بدأت تقوىٰ في المجال منذ مطلع القرن عندما توطّدَ الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت ١٨١١) في منطقة أزواد، التي خلفه فيها ابنه، الشيخ سيدي محمد (ت ١٨٢٦). وكانت هذه فرصة أيضًا حتىٰ لتلامذته وتلامذة ابنه كالشيخ سيديا الكبير (ت ١٨٦٩) الذي صارَ له تلامذة وأتباعٌ بمالي[٢]. وكان العلماء التيشيتيون، وأكثريتهم من التيجانيين، يتمركزون في نيورو وسيغو، وكانوا بها من المدافعين عن الحاج عمر الفوتي (الذي أخذ الوِرد التيجاني من عند العلامة

(1) Alfred Le Chêtelier, 278.

(2) Abdel Wedoud Ould Cheikh, "Harun Wuld al-Shaikh Sidiyya 1919-1967," David Robinson et Jean Louis Triaud, eds, *Temps des marabouts: itineraires et strategies islamique en Afrique occidentale francaise v. 1880-1960,* Paris: Karthala, 1997, 202.

سيدي مولود فال اليعقوبي، الذي أخذه بدوره من الشيخ محمد الحافظ العلوي، مُدخِل الطريقة التجانية للصحراء)، وسائرين في حوزته، كما كان مثلًا شأن سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد ابن انبوجه العلوي التيشيتي (ت ١٨٦٦) الذي توطّدَ بسيغو، وربما دفِنَ بها، وكما كان حال بابَ بن أحمد بُيبَ، العالم البيضاني المؤثِّر(١). وعمومًا كانت هذه العلاقات البيضانية السودانية تعودُ إلىٰ القرن السابق حيث تربّىٰ مشائخ السودان علىٰ عُلماء تيشيت، كما كان مثلًا حال الشيخ سليمان بال (١٧٠٥-١٧٦٩)، الذي درس بتيشيت وعاد إلىٰ المجال الفوتي بالضفة في كيهيدي حيث أسّس بها نهضة قومية فوتية كانت إرهاصًا لظهور الحركة الفوتية.(٢) أما السونينكيون فقد درست منهم نخبة أيضًا علىٰ علماء البيضان كما كان حال فودي طالب صمبَ سيسىٰ، الذي درسَ علىٰ بابَ ولد بُكّة المسّومي، ربما في السودان الإفريقي، وعادَ إلىٰ مجال كيدماغا حيث بنىٰ مدرسة كبيرة في كومباندو(٣).

وقد ولّدت هذه التفاعلات تواصلًا وانقطاعًا من علماء تيشيت إلىٰ تلامذتِهم في فوتا لما أصبحت بها سلطة قوية ومثل ولد انبوج من العلماء البيضان المنقطعين إلىٰ السودان كان النابغة الغلاوي (ت ١٨٢٩) في جهة الغرب الذي كان أثيرًا عند زعيم الألماميين، عبد القادر، الذي عدّه من أشياخه؛ وكان لا يقطَعُ عنه صِلة. وكان للألمامي نفسه شيوخٌ روحيون من البيضان درَسَ عليهم في أثناء إقامتِه في إيكَيدي كالمختار بن بون الجكني (ت ١٨١٢) وكأحمد بن العاقل الديماني (١٨٢٦-١٨٢٧)، ولكن الغلاوي، الأصغر منهما كان من أخذته الزيارات الروحية إلىٰ البلاط المُستتلمِذ علىٰ البيضان فاستفادَ من تلك العلاقات ماديًا(٤).

---

(١) الشيخ موسىٰ كمرا، أشهىٰ العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر، تحقيق خديم محمد سعيد امباكي وأحمد الشكري، الرباط: معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠١)، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ٢٧١.

(٣) علي ببكر سيسىٰ، ١٠٢-١٠٣.

(٤) يحيىٰ بن البراء في مقدِّمة نظم الطريد:

محمد النابغة بن عمر الغلاوي، من نصوص الفقه المالكي: بوطليحة، تحقيق ودراسة يحيىٰ ولد البراء، مكة المكرمة: مؤسسة الريان، ٢٠٠٤، ص ٢٩-٣٠.

ومع أواخر القرن التاسع عشر أصبحت زيارات المشايخ البيضان للقرىٰ السودانية، وخاصّةً في السنغال، كثيرةً، ومُدرّة وأحيانًا مستنزِفة ماليًا للأهالي، كما كان مثلًا حال زيارات الشيخ سعد بوه بن محمد فاضل القلقمي (١٨٤٨-١٩١٧) للقرىٰ السنغالية التي كان له وأتباعه بها تأثير روحي كبير منذ ثمانينيات القرن. وقد بلغت استفاداته من هذه الزيارات حدًا امتعضَ معه الفرنسيون، علىٰ تحالفهم معه، من زيارته الدورية للسنغال الغربية في عام ١٩٠٥ عبر خط غانديول واللوكَة وتيواون وتييس حتّىٰ منطقة جولوف ووالو وسان لويس، التي قدم فيها مُرافَقًا بخمسين تابِعًا، والتي أعقبت عام قحط وأدخلت له ولأتباعه مائة ألف فرنك فرنسي إفريقي وآلاف رؤوس الماشية والقطعان والحبوب، ما أدّىٰ، حسب احتجاجات الحُكام السنغاليين والفرنسيين، إلىٰ استنزاف الأهالي من أتباعه. واضطرّ الشيخ، إثر هذه الاحتجاجات، إلىٰ إيقاف رحلتِه عند ذلك الحدّ المُربِح[١].

ولكن سواد المهاجرين إلىٰ السودان كان أساسًا المجتمعات المركنتالية الراغبة في الكسب والتجارة. وقد تنوّعَ هؤلاء من التجار الأغنياء، مسيِّري القوافل، إلىٰ التجار الصغار وباعة التجزئة والناقلين والأُجراء والأكَرَة وباعة الصمغ والملح بالكميات الصغيرة. كما يبدو أن وفرة التجارة في الجنوب قد دفعت إلىٰ هجرة عناصر من قبيلة كنتة واستقرارها في تمبكتو، حيث بدأت في مراقبة التجارة التي تنشط من توات وتاودَنّي أو تذهب إلىٰ مدن حوض النيجر والتحكم فيها، كما كانت عناصرهم تتوغل جنوبًا للمتاجرة في المدن الصحراوية الجنوبية كأغادس وبيلما[٢]. وقد سجّل هنري بارت الحضور القوي للبيضان في باغنة التي كان يسيطِرُ عليها أولاد امبارك وخصوصًا، أولاد مزوك وأولاد اعمر. وكان يوجد بها

---

(1) David Robinson, Paths of Accomodatiom: *Muslim Societies and French Colonial Authorities in Senegal and Mauritania 1880-1920,* Ohio: Ohio University Press, 2010, 173.

(٢) انظر مثلًا عرضًا عن العلاقات الاجتماعية للتجارة القوافلية التي جمعت التكوينات الاجتماعية للصحراء بتلك التي في السودان:

B . Marie Perinbam. "Social Relations in the Trans-Saharan and Western Sudanese Trade: An Overview", *Comparative Studies in Society and History,* 15, No. 4(sep., 1973), 424-25.

أيضًا مجتمعٌ من البيضان ضمّ مختلف القبائل أمثال من عرفهم بالديان، ولِكَلاكَمة، وايدوبلال، وأولاد الطالب، وإيدوعيش، والعروسيين، والنواظير، وأهل الطالب محمد، وتناكَي(١).

وربما لم تكن الهجرات التجارية غير تقسيم عمل تجاري، فكان أهل سيدي محمود، الذين كانوا يسكنون أفطوط، يتغلغلون إلىٰ الجنوب حيث يسكنون في ديومبكو وخاي (كاي) ونيورو في الموسم الجاف ثم يعودون إلىٰ بلدانهم في بقية المواسم. أما أولاد داوود وأولاد علوش، القاطنون في باسكنو، فكانوا يرتحلون لفترة إلىٰ بادي وسوكولو. وكان بها حضور قوي أيضًا لتنواجيو والأقلال في الجنوب. وبفعل هذا التغلغل في السودان أمكن لهذه القبائل تأسيس مراسلين لتجارتها في عمق السودان. غير أن بعض الهجرات كانت سكنية وقارّة كما كان شأن الحراطين الذين قطنوا في مدينة هاربنغو وأسّسوا بها مجتمعًا مقيمًا بالبيوت الطينية. أو كما كان شأن مجموعات كنتة في تمبكتو، التي كان لهم بها أتباعٌ من الطوارق والزنوج وكانوا ينزلون منها حتّىٰ أريباندا وهاربنغو. وقد حوّلهم سكنهم هنالك إلىٰ طرف سياسي وعسكري في حياة السودان، وهو ما جعلهم يخسرون كثيرًا من الأتباع التكرور بعد هزيمة الحاج عمر، فنفر التكرور منهم لما حاربوه، كما اشتدت عليهم منافسة إيغلاد الطوارق(٢).

وبفعل هذه الهجرات تزاوج البيضان مع شعوب الجنوب وخصوصًا بين أولاد داوود والطوارق وبين كنتة والبرابيش. وقد ذكر إسماعيل حامد قصة الشيخ مود، البيضاني الذي تزوّج وثنية في بلاد السودان وأنجب منها سبعة أولاد. وسينشأ هؤلاء وثنيون حتّىٰ وقت لاحق عندما هاجروا إلىٰ إسنغانة ثم خرجوا منها وأسّسوا قرية إدانغللة واعتنقوا الإسلام(٣).

❀ ❀ ❀

---

(1) Henry Barth, vol 3, p. 711.

(2) J. de Lartigue, p.42, p. 45, p. 50.

(3) Ismail Hamet, p. 36.

وإذا كانت التجارة أتت بالبدو إلىٰ المدن، فإنها أتت أيضًا بالحروب. ففي الشمال دخلت شنقيطي في حرب مع ودان. وفي ودان تحارب كنتة مع أهل سيدي محمود، وتحارب أولاد سيدي الوافي من كنتة مع احيي من عثمان، سادة آدرار، وتحاربوا مع إيدوعيش، القوة الأبرز بتگانت. وترافق توسُّع الرقيبات مع حروب ضارية ضد تجكانت وأولاد بوسباع. وفي آدرار تحارب إيدوعلي وإيدولحاج، ولعلّ هذا توسّع إلىٰ حروب لهم مع إيدوعلي في تگانت، حسب ما يذكره سيدي ولد الزين. وفي تگانت تحارب إيدوعيش ومشظوف وأولاد الناصر، وتغازَىٰ الرعيان مع الطوارق. وفي الشرق تحارب مشظوف وأولاد امبارك، وفي أرض الگبلة تحارب إيدوعلي وإيدابلحسن وأولاد أبييري وايديجبة، هذا إضافة إلىٰ احترابات الإمارات فيما بينها وإضافة إلىٰ مئات الغزوات التي كان البيضان يقومون بها ضدّ السودان، وكلّها حروب كبيرة حدثت غالبًا بسبب المنافسة علىٰ الطرق القوافلية أو علىٰ المسارح الغنية أو علىٰ الآبار أو حقوق الحماية والسيادة. وكانت الحروب نفسها اقتصادًا وظلت نمطًا إنتاجيًا مهمًا في هذه الفترة. ولم تكن عامل كسب فقط للمحاربين الرسميين، وإنما لمن يُسيِّرونه معهم فيها من الأزناكَة والحراطين الذين ربما لم يتجيّشوا في الأحقاد الحربية في بدايتِها، كما كان بعض أفراد الزوايا يدخلون هذه الحروب من أجل السلب وأخذ عدة المهَاجمين والضحايا، كما كانوا يرافقون المحاربين لتقديم الخدمات الدينية كدفن الأمراء والمحاربين الذين يقضون في المعارك والمواجهات. وكانت صناعات المعلمين مهمّة للحروب، حيث كانوا ينتجون الخناجر والسيوف والدروع الخشبية. ولكن معظم الأسلحة البيضاء كانت تباع في الضفة اليمنىٰ؛ إذ لم تكن أساسية في حروب البيضان[1]، الذين كانوا يتحاربون غالبًا بالبنادق.

كان أسُّ تسلح البيضان من البنادق الأوروبية، بنادق الصوان المعروفة عند الفرنسيين بالبنادق الحجرية، وهي عائلة من البنادق ذات الماسورة الملساء أو الطويلة، المعروفة بـ «**المسكيت**» (من Musket)، وبنادق القناصة، التي تُطعّمُ بالبارود، وهي كلها عائلة من التسليح الأوروبي الذي ازدهر بدءًا من القرن

(1) Poulet, p. 7, p. 8, p. 13.

الخامس عشر، ولكنها لم تكن تستخدم لإصابة أهداف تبعد مائة خطوة في الغالب. إلاّ أنه فيما استُخدِمَ المسكيت في أوروبا للمشاة، فإن مقاتلي الصحراء استخدموها بالتعاون مع الخيل فأعطوها بذلك قوة ماحقة. وبطبيعة الحال، فإن هذا السلاح الذي يحتاج للاقتراب من الخصم كثيرًا لم يُحيّد قوة العامل البشري وفعالية الالتحام، وبقي دومًا دورٌ للشكيمة ولشدّة الرجال، وكان أساسيًا في حسم أي مواجهة. علىٰ أن الأمراء وزعماء الحرب تميزوا عن المحارب العادي بامتلاكهم البنادق السريعة بالمكابس، المعروفة بالفرنسية بالكلب (Chien). أما البارود فكان يُستورد من الفرنسيين في السنغال، وكان يتوفّرُ غالبًا بكميات معتبَرَة لدىٰ الأمراء الذين كانوا يوزِّعونه علىٰ من يحارب معهم. وفي القرن التاسع عشر استطاع الصناع التقليديون التابعون لإيدوعيش وكنتة في تگانت تصنيع نوع محلي من الرصاص صنعوه من البارود والملح الصخري والكبريت المستورد من الترارزة وآدرار[١]. ونُخمِّنُ أن هذا أعطىٰ دفعًا للحروب في تلك المناطق.

ولكن سرّ تفوق البيضان العسكري علىٰ كثيرٍ من المناطق المحاذية لهم كان الخيل. ورغم أن بوليه زعم أن البيضان لم يكونوا يولون عناية خاصة للخيل[٢]، إلا أن مونغو بارك ومن بعده رينيه كاييه لاحظَا العكس: عناية فائقة بالخيل في مجال أولاد امبارك والبراكنة، حيث تُغذىٰ الخيل صباحًا ومساءً، غُدوًا ورواحًا؛ وحيث كانت مسألة إطعامِها من أولىٰ هواجس الفارس لحظة نزوله[٣]. وصحيحٌ أن الخيل لم تكن القوة الهجومية الوحيدة، ولكنّها كانت تُستخدمُ في الغالب في معارك المشاة عندما كانت تُؤَخَّرُ عن جموع المشاة والجمالة المتقاتلين فيما بينها، وربما كانت أكثر استخداماتها في تحييد الخيالة المنافسة أو التصدي لها ومتابعة الفارين أو الهجوم علىٰ القوافل[٤]. ولا ريبَ أن دخول الفرنسيين في منتصف القرن التاسع عشر غيّر من تقاليد الحرب الصحراوية عندما بدأ المقاتلون بالترارزة، الذين حاربوهم مرارًا في الضفة في الفوتا والكايور، يستوردون

(١) نفسه، ص ١٣-١٥.

(٢) نفسه، ص ١٤.

(3) René Caillié, p. 97.

(4) Poulet, 14-15.

تكتكيهم العسكري المعتمد علىٰ تنظيم المجموعات المقاتلة في ألوية تَجمَعُ العناصر القبلية علىٰ لواء يحرسه سبعة مقاتلين؛ وكان لكل قبيلة لواء ولكل لواء علم. غير أن قبيلة الإمارة، أولاد أحمد بن دمان، كانوا يحتكرون العلم الأبيض[١]، الذي لم يكن يرمز للسلام؛ وإنّما كان يرمز للإمارة مثله مثل السروال الأبيض والطبل والأواني والقداح.

بقي في ذهن التقديم الفرنسي أن التنظيم العسكري لدىٰ البيضان كان يعتمد عمومًا علىٰ الهجوم غير المنظّم، وإن كان عصبيًا وعشائريًا؛ إذ كانت المجموعات المقاتلة تُهاجم في إطار تجمُّعها القبلي وتختار دومًا وقتًا متأخرًا من الليل، غالبًا حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة للهجوم علىٰ أهدافِها[٢]. وأحيانًا لم تكن الحروب مجرّد غزوات خاطفة، وإنما كانت تتمُّ في شكل حرب تجمع فريقَيْن مستعدّيْنِ للموت والتفاني. وفي هذه الحالة، كان الشيوخ والنساء والولدان يُستَبقون في المضارب لحماية الممتلكات، وعند الهزيمة كان الطرف المنتصر يقتحم المضارب وتقوم عناصره بسلب الحيِّ وتستاق من به من العبيد وما به الأنعام. ويبدو أنه، بغضِّ النظر عن التفاني الانقسامي والسياسي بين الأطراف القبليّة، فإن جانب السلب والنهب، أي الارتزاق من الحرب، كان عاملًا أساسيًا في المواجهات. وربّما للسبب ذاته كانت بالمقاتلين فروسية تجعلهم يستبقون النساء والأطفال والشيوخ من الخندق المهزوم ويعرِضون عن التنكيل بهم[٣].

ورغم أن فرص استثراء المجتمع في هذا القرن كانت تعود أساسًا إلىٰ التجارة والنخاسة، إلا أن اقتصاد الحرب كان ما يزال أساسيًا لبقاء طبقات كثيرة؛ فكانت المجموعات المحاربة أو المالكة حتّىٰ من الزوايا ما زالت تحقِّقُ العوائد من المغارم والجبايات التي تفرضها علىٰ الملحقين. وبالنسبة إلىٰ المجموعات المحاربة، فإن هذه المغارم كانت تأتي من مصادر ثابتة كغرامات الحماية والخفارة، وأحيانًا المداراة، التي ظلّ يؤدِّيها معظم الزوايا والحراطين والملحقين

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ١٣.

الذين كانت تفرض ضريبة حولية علىٰ كل أسرة منهم. وكان بمقدور الأمراء أن يفرضوا ضرائب جديدة خصوصًا علىٰ الملحقين الأزناكة. في الحالة العامة لم تكن الضرائب تقلّ عن مائة قطعة من القماش تدفع غالبًا في شكل قطعان، ولكنها كانت تزيد علىٰ هذا في الأسر الغنية[١].

جزءٌ كبيرٌ من حملات السلب كان يتمُّ فيما وراء النهر. وبطبيعة الحال، فإن «**الطيحة**» أو «**الغزي**» كانت معلمًا حاضرًا في داخل الصحراء، وكانت المجتمعات الآمنة عرضة لهجوم خاطِف من الجماعات المحاربة. إلاّ أن عوامل كثيرة تتعلّق بالانتجاع الموسمي واستهداف المجتمعات المزارعة المستقرة وتجنيب العنف للأهالي والحلفاء والمعارف وعلاقاتهم الاجتماعية الواسعة والبحث عن العبيد، جعلت معظم القبائل المحاربة تنسِّقُ هجومها علىٰ القرىٰ السودانية في زمن الانتجاع في الضفة اليمنىٰ. وللمفارقة، فإن هذه القبائل لم تتوسّع في السودان من دون شبكة علاقات مع العشائر السودانية؛ ذلك أنّها كانت تستفيد من تحالفاتها في الضفة للهجوم علىٰ القرىٰ التي لا تقع في تحالفها. وعندما وصل رينيه كاييه إلىٰ قرية نبال في عشرينيات القرن، وجد أنّ ذكرىٰ هجمات البيضان عليها بمساعدة سكان الوالو كانت ما تزال حية، وكان سكان نبال يتحدثون عن هذه الغزوات ويحيطونها بكثير من الخرافات حول وجود حجارة سحرية في القرية تحذر من هجمات البيضان[٢]. وفي أواخر القرن ركّز لارتيغ علىٰ أولاد الناصر ومشظوف باعتبارهما أهمّ من كان يباشر غزو المجتمعات السوداء ونهبها في الجنوب الشرقي، ذلك أنّهم كانوا يهاجمون القوافل المتاجرة في النطاق ما بين نيورو وغمبو، مما كان يستعدي العناصر المتاجرة كافة، بمن فيهم الفرنسيون الذين سينظِّمون حملة قوية ضدهم في عام ١٨٩٥[٣]. أما مشظوف فلم يتوقّفوا عن الهجمات المنظَّمة في السودان الشرقي قبل عام ١٨٩٣، رغم استمرار عمليات النهب الصغيرة بعد ذلك[٤]. ولم تكن كلّ الحروب تتعلّق بنهب البيضان

---

(١) نفسه، ص ٢٣.

(2) René Caillié, pp. 35-38.

(3) J. de Lartigue, p. 55.

(٤) نفسه.

للسودان، فقد هاجم مقاتلو البولار بعض القبائل البيضانية وهزموها كما حدث في احترابات الفوتيين وأولاد امبارك وفي هجمة المقاتلين البامبارا علىٰ باسكنو وتدميرها في عام ١٨٣٢[١]. كما تحارب البولار الفُلاّن مع الطوارق مرارًا، وخصوصًا في موقعة **دنكر** في عام ١٨١٨-١٨١٩، التي تحكي بعض تواريخ البيضان أن الطوارق قتلوا فيها ١٧٠٠ من البيضان، ولم يخسر الطوارق غير قتيل واحد[٢]!

ولم تكن عمليات السلب تتم فقط في إطار الهجمات، بل كانت السرقة والنشل أمرًا شائعًا وقد تعرّض رينيه كاييه لعملية سرقة وهو في طريقه إلىٰ بلاد البيضان من قبل بيضاني ولم ينقذه سوىٰ بيضان آخرين[٣]. ولا شك أن الجغرافيا لم تكن حدًا بين هذه الممارسات. ففي داخل الصحراء كان للنهب والسلب حياتهما الطبيعية خارجها. ويشكي الشاعر العلوي الهادي ولد محمدي، من تكاثر «الوخش»، وهم اللصوص الطغام، في قصائده التي نقلها صاحب **الوسيط**، كما كان يشكو من اللصوص «المعدودين في العوائل»، إذ كانوا يسرقون منها كلّ ممتلكاتها. كما توجَدُ الشكوىٰ نفسها عند الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا (ت ١٨٧٠) في قصيدة **حماة الدِّين**، التي يقول فيها إن «الدِّين صارَ أسيرًا للصوص والنصارىٰ»، وإن كان قصد باللصوص أيضًا المحاربين المُغتصِبين. وقد شكىٰ من المجموعات الغاصبة في الشمال بأنهم «أيْمانُهم كلّها لغوٌ، ودأبُهم غصبُ الأباعر من كلّ الأناسين»[٤]. ولم يكن السلب والنهب حكرًا حسانيًا، ففي تگانت كانت مجموعات «**سُكابة**» وهي عصبة من الصعاليك و«لفيف من العبيد جلّهم من كنتة والبقية من إيدوعلي يعيشون علىٰ السلب والنهب»، كما تُخبِرُنا **حوليات تجكجة**[٥]. ويبدو أنهم نافسوا احتكار إمارة إيدوعيش للمغارم وقتلوا

---

(١) الولاتي، منح الرب الغفور، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ٩٦.

(3) De Lartigue, p. 44.

(٤) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، ص ٢٧٤.

(٥) عائشة بنت ديدي، هامش ٩، في: حوليات تجكجة، ص ٤٧.

أحد أمراء أبكاك، مما اضطرّ إيدوعيش إلىٰ مطاردتهم وقتلهم[1]. ويتضّح من هذا المثال الدور الحرابيّ الذي كانت تقوم به المجموعات الناقمة من صعاليك القبائل المتعلمة أو من العبيد المتمردين.

❁ ❁ ❁

رغم أن حياة القرن التاسع عشر أخذت كثيرًا من البدو وأدخلتهم في اقتصاديات البضائع العابرة أو حوّلتهم إلىٰ مزوِّدين للمراكز المدنية بحاجياتها من اللحوم والألبان والنقل، وفي سبيل هذا حولتهم إلىٰ أنصاف متمدنين؛ إلا أن حياة الحلِّ والترحال بقيت المعلم الأساسي للسكن في الصحراء. ولم يكن الوافدون علىٰ المراكز القارّة غير باحثين عن أرباحٍ ما إن يحصِّلونها حتىٰ يقفلوا بها راجعين إلىٰ مضاربهم البعيدة المترحلة. كانت الانتجاعية الموسمية، والظعن الدائم، ما يزال سمة حياة القبائل كافة حتىٰ في المناطق المحاذية للنهر، الموصوفة بالمدانة والمحاذية للمحطات الرأسمالية. وكانت هذه القبائل تهبط إلىٰ ما وراء النهر ولا تصعد إلىٰ شمال الضفة إلا في فترة الخريف؛ وذلك هربًا من البعوض المُضِر بالقطعان وبالبشر.

ولم تكن الانتجاعية غير بحثٍ دؤوب عن فصل الخريف وعن المسارح الغنية. وكانت فترة صعود القبائل المنتجعة فيما وراء النهر إلىٰ الصحراء تتفِّقُ مع فترة الخريف في شمال الضفة مما يسمح بنمو العشب الضروري للرعي. وتمتلئ كتابات المخبرين الفرنسيين بتحديد أوقات ترحال القبائل التي تنتجع في فترة الخريف في السافانا ثم تصعد بعد ذلك قافلة إلىٰ الضفة اليسرىٰ. وفي الشمال كانت أهمية المسارح كاسحة، بحيث إن معارك كبيرة وطاحنة جرت علىٰ امتلاكِ حقِّ الرعي وخصوصًا بين الركَيبات وتجكانت ثمّ بين اركَيبات وأولاد دليم ثم بين الركَيبات وأولاد بوسباع ثم أخيرًا بين الركَيبات وأولاد غيلان. ولعلّ السيطرة علىٰ المسارح كانت جزءًا من الصراع الطويل بين إمارة آدرار وقوىٰ الشمال من أولاد دليم وأولاد اللَّبّ في إنشيري وتيريس والركيبات في تيريس والساقية. ولقد

---

(١) نفسه.

عملت هذه الحروب علىٰ صدِّ توسّع آدرار إلىٰ تيريس في الوقت نفسه الذي عملت فيه علىٰ صدِّ قوىٰ الشمال عن التوسع إلىٰ آدرار. ولكن هذا التوازن الاستيراتيجي كان مكلفًا؛ إذ كان يُضمن بحروب مستعرة وغزوات خاطفة دائمة بين الطرفين (انظر مثلًا الفصل عن إمارة آدرار).

وصحيح أن فئات كثيرة في البلاد كانت تعتمد التجارة والزراعة، ولكن الأرض كانت هبة الأمطار وكانت الرعوية هي حركة الناس طلبًا للأمطار ارتهانًا لها، وكانت الأمطار جزءًا من التكوين النفسي لشعب الصحراء. أما اقتصاديًا فكانت الخصوبة الخريفية هي ما يحدد الرفاه في العام من عدمه؛ ذلك أنّه لم يمكن حتّىٰ للمجموعات المتاجرة والمزراعة أن تكون مستقلة دومًا عن الرعي، بل كانت تستثمر في شراء القطعان والإبل. وهكذا نجد دومًا الإحالة إلىٰ الأعوام بأسمائها البيئية المرتبطة بالخصوبة أو بالجفاف باعتبارها الأحداث الأهمّ والمُعرِّفة للسنين والأعوام. ونلاحظُ أن سكان الصحراء كانوا دومًا تحت رحمة الأمطار من عدمها. وكانت مجاعاتُهم بيئية الأصل دومًا. فقد كان عام «**كرتومة**» وهو ما يُقابل (١٨٢١-١٨٢٢) عامَ غلاء شديد في نواحي ولاتة بسبب الجفاف[١]. وقد عُرِفَ عام (١٨٢٥-١٨٢٦) بعام «**حبس**» لما انحبست الأمطار وغلت الأسعار. أما عام ١٨٢٩ فكان عام حصاد جيِّد استطاع فيه سكان ولاتة زرع البطيخ (**فُندي**) بخصوبة ووفرة[٢].

وبسبب طبيعة الترحال، فإن معظم، وليس كلّ، شعوب الصحراء سكَنت في الخيام، وليس في منازل الطين والحجارة والآجر، رغم أن سكان المدن التاريخية كانوا يسكنون هذه؛ لأن الخيام وحدها، وهي سريعة الطي والتشيِّيد، هي ما كان يستجيب لمتطلبات الترحال. ويتضّح هذا من تطابق كلمة «**خيمة**» بالحسانية مع مدلول «عائلة» أو «أسرة». وفي أحيان كثيرة، خصوصًا في حالات الاستقرار النسبي، كان البيضان يشيِّدون أكواخًا ويستقرون بها. وفي كلتا الحالتين

(١) الولاتي، منح الرب الغفور، ص ١٠١.

(٢) نفسه، ص ١٠٦؛ ١٠٩.

كان الأثاث يُصنع من جلود المواشي[1]، التي كانت تُدبغ بُغية وبرها وصوفها. وقد عُرِف نوعٌ من هذه الجلود المعدّة للفراش أو الصلاة بالهيدورة أو «**إليويش**» بالحسّانيّة، وبدأت تظهر منذ القرن الثامن عشر في النوازل الفقهيّة حيثُ سُئِل حمي الله التيشيتي (١٦٩٣-١٧٥٥) عن مسألة في طهارتِها في القرن السابع عشر[2]. وبطبيعة الحال، لم تكن الهيدورة، البسيطة في إعدادِها وفكرتِها، كلّ الأفرشة الصّحراويّة التي كانت تتراوح في اختلافاتها بين الجلود البسيطة إلىٰ الزرابي الثمينة التي كان الحرفيون يعدونها من جلود الحملان، ربما مقلِّدين بها الأستراكان كما اعتقد ذلك بعض الرّحالة، وكانت بكل خيمة من الخيام البيضانية باستثناء خيام الفقراء[3]. ولم تكن سيادة الخيام وتفرُّدِها تنقشِع إلاّ في المدن والكصور، حيثُ كان الناس يقطنون في الديار والمنازل كما كان حال آدرار وتگانت[4]. في المدن التجارية في هذه الفضاءات كشنقيطي وولاتة وتيشيت ووادان وكَصر البركة وتجكجة وغيرها، كانت المنازل والدور إرثًا معماريًا عريقًا. وقد بدأت في سنوات القرن التاسع عشر تتطوّرُ حثيثًا إلىٰ كصور الشرق في باسكنو والنعمة وغيرها.

❀ ❀ ❀

ظلّت الصحة العامة للبيضان جيدة، فقد استغرب كاييه أنه طوال إقامته لم يرَ أبرص أو أعرج ولم يرَ غير ضرير واحد وآخر مصاب بداء الفيل Elephantiasis، ورغم ندرة مرض الجرب إلا أن البيضان كانو يواجهونه بإجراءات حجر صحي وعزل للمريض لحين شفائه[5]. وربما بفعل ندرة الأمراض كان البيضان حساسين للألم حسب ما نقله كاييه[6]. أما التطبّب عندهم فكان يعتمد علىٰ عادات

---

(1) René Caillié, p. 61.

(٢) نوازل حمي الله التيشيتي، مخطوط، ص ٣٩.

(3) René Caillié, p. 93.

(٤) نفسه، ص ١٤٨.

(5) René Caillié, p. 109.

(٦) نفسه، ص ١٠٧.

استشفائية متداولة في الثقافة: فكانوا مثلًا يَعْصبون الرأس بقوة في حالة الصداع، ويعالجون الزكام بوضع الزبدة في الفم، ويستخدمون بول النوق لمعالجة المغص الكلوي، ويُوظِّفون نبتة «**التورجة**» أو العُشَر المجففة أو المقلية لعلاج الجروح والحروق. وكانت طينة «**الحميراء**» التي كانوا يأتون بها من الجب والآبار تُفيد في معاجة داء الشقيقة وآلام الوجه وشلله الجزئي بفعل البرد. وفي عام ١٨٢٩ أدخل رينية كاييه استخدام نبتة الحبق أو الريحان للشفاء من التوعك عندما عالج الأمير أحمدو[١]. وقد أصبح كاييه نفسه خبيرًا في العلاج بالأعشاب في البراكنة، وسرُعان ما ذاعت الثقة في استطبابه بحيث إن البيضان سيستخدمون هذا المَثَل: «**ما ينفع فيهَ وِلْ كَيْجَة النصراني**» (=مصيبة لا ينفع فيها ابن كاييه) للدلالة علىٰ الأشياء التي لا تقبل العلاج.

بيد أن القرن التاسع عشر شهد أيضًا ظهور قامات طبية أخرىٰ شامخة في الصحراء. وفي تگانت بزغَ نجم المقري، الذي ورّث تعاليمه الطبية لأسرته فصارت إحدىٰ أشهر العائلات الطبيّة في الصحراء. ويُعرفُ آل المقري اليوم بأنهم أسرة الطِّب التقليدي في موريتانيا. ولكنهم في القرن التاسع عشر كانوا رمز الطب غير التقليدي؛ إذ عُرِفَ المقري بأنه عزف عن الأشكال الموروثة، وكان «أول من طبّبَ في هذه البلاد بالفراسة»، كما قال عنه سيدي ولد الزّين[٢]. وُلدَ المقّري لأسرة علوية؛ إذ كان أبوه الطّالب محمد بن المختار، وتنقّلَ بين تگانت واركَيبة. ورغم نزوع أهل الصحراء إلىٰ اعتقاد مصدر قداسي لطبِّه وأنه وليٌ (ربما لأن التطبب كان شأن الأولياء كأسرة الشيخ سيدي المختار الكنتي)، إلاّ أنه كان واضحًا في أنه يستخدم الحس السليم و«الفراسة». وقد علّق عليه المختار بن بون الجكني، المتوفّىٰ في مطلع القرن التاسع عشر، الذي كان في بدايته معاديًا له، غير أنّه ذُهل من قدرته الشفائية وأقرّ بها، قائلًا: «سبحان الله كأنه عيسىٰ يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله»[٣].

---

(١) نفسه، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) ولد الزين، ص ٢٥.

(٣) نفسه.

أما ابنه عبد الرحمن فكان مقاتلًا ذا عصبية، وقد قام بغزوة ضدّ إيدابلحسن في أرض الگبلة انتصارًا لبني عمه، كما تعصّب للأقلال ضد تجكانت لما تحاربوا. ولكنه كان، فيما عدا خلفيته الحربية، طبيبًا ماهرًا. وقد صارَ مقصد الاستشفائيين والمعلولين في مجاله. ولعلّه نقل خبرته إلىٰ ابنه، أحمد، الذي كان عظمة أخرىٰ للطّب الصّحراوي في القرن التاسع عشر. وقد تحدّث سيدي ولد الزّين عن عجائب تطبيبه فقال:

من أعظم عندي ما بلغني عنه من الطب أنه يؤتىٰ بالمريض وبه قيح بين جوفه وجلده وينزعه منه في ساعة واحدة. وقد بلغني أنه أتاه رجل به **نفطة** في جوفه فشقّه وأخرج **مجبنته** من جوفه وأزال **النفطة** منها ثم ردّ المجبنة لمحلها وأبرأ المريض بعد خياطة. وقد أتته امرأة -أو أتاها- من أهل تججك تُسَمّىٰ السالكة بنت محمد ووجدها لم تَبُلْ منذ مدّة تزيد علىٰ شهر -فيما قيل لي- وأخذ يده وأدخلها في محل بولها وأقامه إلىٰ مسلكه الأصلي فبالت من حينها. فسأله سائل عما بها؟ فقال: كانت امبولتها ذاهبة فأقمتها، فبرئت. وربما يأتيه الشخص وبه شجّة ذاهب منها بعض عظم رأسه أو مكسور ويشرع في علاجه ويبرأ غير ما مرة[(١)].

وربما لم يوازِ عائلة المقري من العوائل الطّبّيّة إلا آل أوفىٰ، في الترارزة، الذين صنعوا شُهرتَهم البلسمية في عموم الصحراء بالتطبيب الذي توارثوه. وُلِد رأسُ أسرتِهِم، أوفىٰ بن أبي بكرن الألفغي، في وسط تَشمشي في عام ١٨١٧، وسرعان ما وطّد سمعته كأهم طبيب في غرب الصحراء بسرعة. ورغم غوصه في التصوُّف، إذ كان كأهلِه شاذليًا وكان فقيهًا وشاعرًا، إلاّ أن الطبّ استهواهُ وكان شهرته. ويبدو أنه اعتمد علىٰ المقاربات العلمية لابن سينا (ت ١٠٣٧) وداوود الأنطاكي (ت ١٥٩٩) وشهاب الدين القليوبي (ت ١٦٥٩) بل وحتّىٰ علىٰ **الرحمة في الطب والحكمة** للسيوطي، وليس فقط علىٰ التطبيب بالموروث. غير أن استفادته من الآثار الطبية العربية المكتوبة، كما يتضح من إحالتِه في بعض كتاباته العِلاجية إلىٰ بعض الأعشاب المشرقيّة التي لا تعرِفُها الصّحراء، لم تنزَع من

---

(١) نفسه، ص ٢٦.

خبرته سياقها في الأوضاع المحلية، فقد درَسَ الطِّب علىٰ إيدوعلي، كما يُخبِرنا بول ديبي، أوّل من دَرَسه، وكان يُسمِّي الأمراض بأسمائها الحسانية ويقترح علاجها كما ورد في كتاب **العلاج** الذي ربما ألّفه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي عُرِف لدىٰ العموم بـ «**علاجه**». ولم يكتفِ أوفىٰ فقط بالتطبيب، بل اهتمّ بالوقاية كما يتجلّىٰ من كتابه **قواعد التّدبير**. أما كِتابه **عمدة الطب** فكان رجزًا من ١٢٢٤ بيتًا أحكمَ فيها قواعد العلاج. ولعلَّ أهم مساهماته في صحة الصحراء كانت تعميمه، إن لم يكن اكتشافه، للاستخدامات العلاجية الكثيرة لنبتة السنا الإسكندراني أو الشُّجير السيناميكي المعروف في الصحراء بـ «**أفلجيط**». ويبدو أن أوفىٰ استخدمه أساسًا في تليين القولون وتفريغه. وكان لهذا حلول ناجعة لإحدىٰ المشاكل المزمنة في الصحراء، وهي عسر الهضم. توفي أوفىٰ في عام ١٨٨٠ أو عام ١٨٨٣، ولكن علومه انتقلت إلىٰ أبنائه وأبناء بناته وأبناء عمه المعروفين بأهل انددو وبقيت متداولة حتىٰ اليوم في ذريته[(١)].

وتبدو قصة العوائل الطبية متكرِّرة في القرن التاسع عشر كما كان شأن عائلة «أجوان» العلوية، التي ظلّت أكثر تقليدية من غيرها، وكما كان شأن عائلة محمد فال بن باب العلوي، المتوفىٰ عام ١٩٢٦ (١٩٢٩ حسب نوريس)، الذي أخذ عن أوفىٰ وابنه عبد الله، وابنه عبد الله الذي استفاد من حَجِّه لاستعلام التطبيب الشرقي وعاد بتقنيات البنج التي لم تعهدها الصحراء قبله. وينطبق الشيء نفسه علىٰ عائلة محمد فال المتالي الذي ألّف كتاب **شافية الأبدان**، الذي اشتهرت ابنته، مريم مامة، بخبرتها العلاجية؛ إذ اخترعت بلاسم وخلطات علاجية خاصة بها. وقد اشتهرت لها خلطة أو «**احويكة**» عجَمت فيها الصمغ بنبتة القرظ

---

(١) انظر: المختار بن حامد، حياة موريتانيا: الحياة الثقافية، ص ٧٧-٧٨.

وانظر كذلك: ورقة غير منشورة لعبد الودود ولد الشيخ مكتوبة بتاريخ أكتوبر ٢٠١٦، تقاسَمَها معي، مشكورًا، بعنوان:

Abdel Wedoud Ould Cheikh, "Science et société dans l’espace ouest saharien," pp. 7-10.

Norris H. T., "Mauritanian Medecine", The Maghreb Review, vol. 9, 5-6, 1984, pp. 119-127.

Paul Dubié (Ed.). "El ’Omda" poèm sur la médecine Maure" par Aoufa ould Abou Bekrin (1780-1850), BIFAN, 5, 4 /1, 1943: 38-66.

(صلاّحة) وعالجت بها حتّىٰ أنواعًا من العمىٰ[1]. ويُشاهد العلاج العائلي في القرن التاسع عشر عند المشايخ الكنتيين وخصوصًا الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت ١٨١١) والشيخ سيدي محمد الكنتي (ت ١٨٢٦). وقد ألّف الأول أجوبة طبية، بينما كان الأخير مقصدًا للمستَشفين من مختلفِ الأسقام[2]. ويمكن القول إنه كان تقريبًا لمعظم القبائل أطباؤها، الذين برعوا في تكميم التجارب الاستشفائية الكثيرة وممارستها[3].

❁ ❁ ❁

رغم الصورة السائدة عن مجتمع البيضان أنه مجتمع قبلي، إلا أن القبائل كانت تعيش في تشرذم وفي تمايز مساحي كبير. كانت كل قبيلة تنقسم إلىٰ تقسيمات نسبية أو سياسية. وكانت وحدة التقسيم السائدة هي النظر إلىٰ القبيلة باعتبارها مجموعة من البطون أو «الأفخاذ»، أما الفرنسيون فقد عرفوا البطون بالـ horde الذي كان مصطلحًا استخدمه القرن التاسع الاستشراقي بكثافة لوصف القبائل البدوية من منغوليا إلىٰ الصحراء. وفي أحيان كثيرة تمّت مطابقة «الفخذ» بالقبيلة لسبب بسيط، هو أن القبائل العامة لم تكن قابلة للتوحد ترابيًا أو حتىٰ سياسيًا. وقد حدّث الأب بوالا عن القبائل البيضانية أن كل بطن منها ينتجع في مكان يناسبه قائلًا: «إن القبيلة لا تجتمع أبدًا في مكان واحد»[4]. ورغم أن بعض القبائل كانت تتوزّع في المضارب وتشترك في مجال جغرافي وجِوارٍ معين، إلا الأن الأمر لم يكن منطبقًا علىٰ كل القبائل خصوصًا المتشعبة منها، التي أدّت صراعاتها وتشعُّب مصالحها التجارية والإنتاجية إلىٰ انقسامات جغرافية ملحوظة. فمنذ القرن السابع عشر انقسمت قبيلة إيدوعلي بين آدرار وتگانت، وفي القرن

---

(١) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ص ٧٨-٨١.

Norris, "Mauritanian Medicine," 120.

(2) Abdel Wedoud Ould Cheikh, "Science et société dans l'espace ouest saharien", pp. 7-10.

(٣) تابع تعداد العوئل والنوابغ الطبيين مع المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ٧٥-٨٣.

(4) Abbé Boila, p. 368.

الثامن عشر وجد شق منها مساكن في أرض الگبلة ولِعصابة. وقد تشعّبَ جيرانُهم في بلدتِهما الأصلية، شنقيطي، إلىٰ متواجدين أيضًا في الحوض بكثرة حيثُ بنوا شراكة تجارية مُزدهِرة. ومن الواضح أن تشعُّب خط التجارة ووجود أتباع روحيين متفرِّقين انعكس علىٰ توزع قبيلة كنتة التي أصبحت تتوزّع في أعلىٰ الشمال إلىٰ تگانت إلىٰ الحوض إلىٰ تمبكتو وأروان فالنيجر؛ وهو التشعب الذي سيكون واضحًا في انقسام بين كنتة الشرقيين وكنتة الصحراء. ومع ارتباط مصالحهم بالخط التجاري بين المغرب والسودان توّزَع تجكانت بين الساقية الحمراء وواد نون إلىٰ أرض الترارزة والسودان. وغالبًا ما كانت صراعاتُهم، كما غيرهم، نتيجة وسببًا لتشعُّبِهم. ويتعلّق الشيء نفسه بإيدولحاج الذين بقي كثيرٌ منهم بودان غير أن الأكثر هاجر مع حظوظ تجارة العلك في أرض الگبلة والسودان أو انعطف مع المنعرج السياسي المتمثل في قبيلة أهل سيدي محمود الناشئة. وبالنسبة إلىٰ القبائل المحاربة فإن التشعُّب المساحي فيها كان موجودًا، ولكنه كان يختلف لعدة أسباب: بسبب طبيعتها الحرابية أو القتالية كانت هذه القبائل تحتاج توحدًا مساحيًا، ثم إن المهاجرين منها، وخصوصًا لأسباب سياسية، كانوا ينضمون للقبائل التي يفدون إليها في إطار جماعات التوبة والهجرة. ورغم هذا، فإن التشعُّب الجغرافي بين بطون هذه القبائل كان قويًا جدًا خصوصًا في مجالات البراكنة وأولاد امبارك وإيدوعيش.

علىٰ أنه كان للقبيلة هوية سياسية وانتمائية عامة وكانت مهرعًا للأفخاذ والجماعات المتباعدة في شؤون الحرب والديات والزيجات، إضافة إلىٰ «صلة الرحم». ويمكن القول إن القبائل البيضانية كانت تنتظم في قيادات سياسية تقودها «**اجماعة**»، وهو مجلس من الأعيان يحضره المتزوجون كافة من كل بطن أو فخذ قبلي. وبطبيعة الحال، فإن أدبيات هذا التنظيم القيادي وتشريفاته كانت تختلف من قبيلة لأخرىٰ ومن مجال لآخر. وفي قبائل كثيرة كانت الجماعة تتوسّع إلىٰ الأحلاف القبلية، فيحضرها زعماء القبائل الملحقة من الأزناكة والحراطين(1).

ولعل أكثر المواضع ديمومة في السياسات العشائرية كانت الصراعات علىٰ

(1) Ismail Hamet, p. 52.

الزعامة القبلية أو تنافس البطون داخل القبيلة الواحدة، ولم يكن من غير المألوف أن تتمرّد «الأفخاذ» أو البطون علىٰ القبيلة وتستعين بقبائل أجنبية. ورغم أن نظام الزعامة القبلية كان يتنوّع ويختلف بين قبيلة وأخرىٰ، إلا أن هذه الاختلافات كانت تنقسم مبدئيًا إلىٰ نظام قبائل يقودها زعيم قبلي أوحد ذو سلطة متوارثة، وهو ما كان يعرف بالشياخة أو تلك التي كان لكل «فخذ» فيها زعامته الخاصة. ولعلّ هذا كان الأغلب في معظم القبائل، خصوصًا في ظلِّ تشعّبها المساحي. أما في القبائل المحارِبة فلعلّ الأمر كان أندر؛ نظرًا لمركزية الأمير وصغر القبائل الحسانية من الناحية السكانية وتجمّعها غالبًا في حومة واحدة، وبالتالي ظلّت أنظمتُها أكثر قابلية للتوحد السياسي، وإن ظلّت دومًا منقسِمة ومتحاربة علىٰ الزعامة. وكان يحدثُ أحيانًا أن يتمّ توزيع الزعامات، وخاصة إبان الحرب، وينتج من ذلك نظام قيادي طارئ بحيث يكون هنالك «**الشيخ الغازي**»، وهو زعيم الحرب، و«**الشيخ الهاني**»، وهو زعيم السلام[1].

بالطبع لا يعني هذا أن القبائل الزاوية عدمت نموذج الزعيم المركزي. فالواقع أنّه كان للمعرفة وللعرفان والزعامة الروحية أدوارها فيها. ولم يكن يندر أن يتزعّمَ العلماء الأجلاّء زعامة قبائلهم السياسية، كما كان مثلًا شأن الشيخ سيدي المختار الكنتي (كنتة)، وسيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم (إيدوعلي)، والشيخ سيديا الكبير (أولاد أبييري، الذين هم مثال جيّد علىٰ تحوّل الزعامة من نمطها الحربي المغفري إلىٰ نمطها الزاوي المشيخي). ومع تقدّم القرن ستظهر الزعامات الصوفية التي تقود قبائل أوسع من انتماءاتها العشائرية، كما سيكون شأن الشيخ سعد بوه في الجنوب، والشيخ ماء العينين في الشمال، وفي مرحلة لاحقة الشيخ حماه الله التيشيتي. ولا شكّ أن هذه الشخصيات كانت تقوم بأدوار تأسيسية أو توطيدية لتجمعاتها العشائرية؛ إذ كانت بسلطاتها الروحية وسلاسل أسانيدها ومُريديها قادرة علىٰ دفع الشرّ واستقطاب المهاجرين والمكاتبين وتوسيع التحالفات القبلية وكسب الرهانات المستعصية. وفيما كان للشيخ سيديا نفوذه الروحي العابر للقبيلة في منطقة الترارزة، فإن سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم كان يحبك نفوذًا شبيهًا في

(1) De Lartigue, p. 42.

تگانت، بحيث ذكر نسابة تگانت، سيدي ولد الزين، أنه كان يقال إن «أهل تگانت أناسٌ سيديون كما يُقال أناسٌ مالكيون»[١]. أما سيدي الأمين بن سيدي أحمد، زعيم أولاد سيدي الوافي الكنتيين، المتوفّىٰ عام ١٨٣٩، فقد كان يُطلق عليه «**شيخ تگانت**»[٢]. ولم تكن قيمة هؤلاء الزعماء تتوقّف علىٰ خدماتهم لقبائلهم، بل إن قبائلهم والوافدين عليهم كانوا يقدِّمون لهم خدمات اعتبارية مهمة، فكان أول بيتٍ بُني بتجكجة هو بيت الأمين بن زلمط، زعيم الزلامطة العلويين[٣]. كما كان سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم مقصد المداحين أمثال سدوم ولد انجرتو، المغني الشهير.

ولعلّ الفرق بين النموذجين هو أن الزعامة الأساسية الزاوية لم تكن تُكسب أو تُخلَعُ بالقوة. أما في القبائل المحاربة فكانت حروب الوراثة علىٰ السلطة شأنًا مستعِرًا دائمًا بفعل تشعّب مصالح المجموعات المحاربة التي كان كلٌّ منها يراهن علىٰ مُطالب بالزعامة أو الإمارة. ولعل قضية مستقبل الزعامة السياسية كانت من أكثر المواضيع إثارة في مجتمع الصحراء، ولم تكن مباشرتها تحدث من دون عنف ومكائد؛ لأنها كانت موضوع قلق ليس فقط للقبائل والعوائل التي كانت تخاف فقدان السلطة، وإنما أيضًا من القبائل التي كانت تخاف سقوط أمرها في يد الأجانب خصوصًا في حالات الزيجات بين رؤساء الإمارات. وسيتفاقم هذا بحيث إن المقاتلين في الإمارات كانوا يقتلون دومًا أبناء الأمراء من نساء أجنبيات ليتفادوا حكم الأغراب أو نفوذهم[٤]. وبطبيعة الحال، فإن طبيعة تبعية القبائل الزاوية أو استقلالها عن القبائل المحاربة كانت تختلف أيضًا من مجال أميري إلىٰ آخر، ففي الترارزة مثلًا كانت قبائل الزوايا الكبيرة مستقلة اقتصاديًا ولا تدفع الغرامات، أما في البراكنة فلم يكن الأمر كذلك في الأغلب[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) ولد الزين، كتاب النسب، ص ٤.

(٢) نفسه، ص ٥.

(٣) نفسه، ص ٢.

(4) De Lartigue, p. 13

(٥) نفسه، ص ٤٧.

يمكن القول إن النظام القضائي كان يعتمد علىٰ قطبيْن: سلطة الأمير الزمنية، وسلطة النص الديني التي يمثّلها القاضي. ولكن الأخيرة كانت تخضع للأولىٰ غالبًا. فالقاضي كان يُعيّن من قبل الأمير، وخصوصًا في الترارزة والبراكنة في آدرار بعد «**عافية امْحَمّد**» في خمسينيات القرن التاسع عشر. ولكنه كان غالبًا من القبائل المتعلِّمة من دون أن يُحصَر في أحدها، ولعلّ أوّل قاضٍ في الترارزة بعد «**شرببة**» كان قاضي إيجيجبة ثم اعلي ولد رازكَة العلوي، وفي بداية القرن العشرين كان رجلًا من الشرفة يدعىٰ الشريف ولد الصبار. ورغم أن القاضي كان غالبًا عالمًا إلا أنه كان أحيانًا يتلقّىٰ التعويضات الوحيدة من الخصماء المتنازِعين، وهو ما يسمحُ لنا بالتساؤل ما إذا كان ذلك قد أثّر أحيانًا في موضوعية أحكامه. إلاّ أن نمطًا من الاستقضاء، وهو الاحتكام إلىٰ عالمٍ في قضيّة مُعيّنة دون أن يكون موظّفًا أو حتّىٰ مقصد جزاء، لم يكن نادِرًا هو الآخر؛ وربّما كان الأذيع. فنعرف أن الأمير التروزي، اعمر بن المختار (ت ١٨٢٩) قد استقضّىٰ مثلًا العالم المشاكس النابغة الغلاوي (ت ١٨٢٩) في تنازعٍ ترابي ما بين قبيلتَيْ أهل باركلله وتندغة (أهل بوحبّيني) علىٰ حقِّ الأسبقية في بيع الصمغ، فحكم هذا المُستَقضَىٰ لصالح تندغة بعد مقارنة تراب أرضِهم بتراب أرض أهل باركلله، مستخدِمًا دليل المحار في الأولىٰ[١]. أما في ولاتة وفي تگانت فقد كان القضاة علماء يُنصبهم مقصدُ الناس لهم ومكانتُهم العلمية وقوة المستثمرين الاجتماعيين فيهم. ولعلّهم أصبحوا قُضاةً بفعل رؤوس أموالِهم الرمزية التي أتاحتها لهم علومهم واعتراف الناس بهم كذلك. ولعلّ هذا النوع من السلطة التلقائية كان يقوم أكثر أيضًا في المناطق الأرحب في المجالات التي لا توجد بها سلطات مركزية.

وفي الأساس كان القاضي يبتُّ في خلافات دينية وشرعية وهو ما كان يفتحُ له المجال للبتِّ في شؤون من يقصده بما فيهم الأزناكَة والعرب. ولكنه لم يكن مقصدًا دائمًا؛ إذ كانَ أوساطٌ من الزوايا يحلّون أحيانًا عويصات مشاكلهم

---

(١) من تقديم الدكتور يحيىٰ ولد البراء للنابغة الغلاوي: محمد النابغة بن عمر الغلاوي، من نصوص الفقه المالكي: بوطليحة، ص ٣٤.

ونوازلهم الفقهية في إطار حوار ذاتي تتخلّله الفتوىٰ والترجيح والكاريزما المعرفية، وذلك باعتبارهم مجتمعًا متعلِّمًا وطبقة دينية. ونفترض أن الحاجة للقاضي لم تكن تلوح غالبًا إلا في القضايا الخلافية التي يتساوىٰ فيها الخصماء. ويبدو لنا أن العُرف القبلي كان يسود علىٰ المعيارية النصانية. ولم يخفَ هذا أيضًا علىٰ المختار بن حامد، الذي سجّل خلافًا للعرف مع المذهب المالكي.[1] ولا شكّ أن هذا كان ينزعُ من الفقهاء كثيرًا من وصايتهم الافتراضية، ويُحدِّدُ سلطاتِهم في أوساطٍ ضئيلة ومجالات مدنية محصورة. ولقد عبّر عالمُ الأصول سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم، الذي كان أيضًا قاضيًا، عن عدم الرضا عن سلطة العرف، ملاحظًا أن «بعض طلبة البلاد يميل إلىٰ العرف مطلقًا»[2]. وكان كتابه **طرد الضوال** دعوة لإحقاق سلطة عملية للرسوم الفقهية وللفتوىٰ. أما نظم النابغة الغلاوي، **بوطليحة،** فقد كان نقمةً علىٰ سلطة العرف وأحكامِه كما علىٰ أنماط الاستنباط والفتاوىٰ عند العلماء فوصفها بالجهل، مُطالِبًا بإحقاق المعايير الأصولية والفقهية في تنظيم الدِّين. وسيشهد القرن التاسع عشر صراعًا كبيرًا بين الفروعيين والأصوليين، لم يخل من مترتّبات علىٰ تصوّر القانون والعرف.

إلاّ أن الفقهاء لم يكونوا مهمّشين تمامًا، وكانت سلطاتُهم معرفية وتحكيمية. وكان من أدوارهم تقسيم التركة وفق الشريعة وبعد قضاء الدَّيْن. أما في المجالات الأميرية فكانوا يستخلِصون وينطِقون بالأحكام التي تُطبِّقُها السلطة. في البراكنة مثلًا كانت الأحكام الجنائية تُطبَّقُ بحضرة الأمير، وهي في جملتها أحكامٌ قاسية غير أنها لم تكن تُنفَّذ دائمًا. كان اللصوص يُجلدون بحضرة الأمير خمسين أو ستين جلدةً أو تقطَعَ آذانهم. أما عقوبة الموت فلم تكن تُطبّقُ إلا نادرًا وفقط علىٰ المُلْحَقِين، وليس علىٰ حسان أو الزوايا المرابطين، حسب تشديد رينيه كاييه[3]. وكما كان شأن رجل من أولاد عايد حكم عليه قاضي كيهدي بالإعدام بعد قتل أخيه، وتمّ تنفيذ الحكم فيه في ٣٠ مايو عام ١٨٩٣[4].

(١) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ٩٢.

(٢) سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم، طرد الضوال، ص ٧.

(3) René Caillié, p. 130, p. 131.

(4) Revue francaise de l'etranger et des colonies et Exploration, September, 1893, p. 322.

ورغم حكم الأمراء بما يبدو كالشريعة (علىٰ أساس أن «الشريعة» قابلة للتمايز عن العُرف)، إلاّ أنّهم لم يكونوا يفعلون ذلك في إطار أيديولوجيا غير متمصلحة. فلقد استطاعت الإمارة في الترارزة تحويل القضاء إلىٰ مؤسسة مُدرّة للدخل عندما كان للأمير شرطته ووكلاؤه الأمنيون من حاشيته من أولاد اركَيبكَ الذين كانوا يقبضون علىٰ اللص ويقدمونه للأمير الذي كان يحصل منه علىٰ غرامات تصل إلىٰ ٤٠٠ قطعة من القماش قبل إحالته إلىٰ القاضي. كما كان الأمير يفرض غرامات تتراوح ما بين ١٠٠ إلىٰ ٣٠٠ قطعة قماش في حالات الشجار التي تصل إلىٰ التصافع أو التجارح. وفي الحالات الخلافية الكبيرة كان يتمُّ إحالة القضية إلىٰ سبعة قضاة أو إلىٰ عالميْ الترارزة الكبيريْن، الشيخ سيديا أو الشيخ سعد بوه[1].

❊ ❊ ❊

لعلّ النظام التعليمي الوحيد في الصحراء كان **المحاظر**، التي أصبحت منتشرة في كلّ المضارب الزاوية وفي أجزاء كبيرة من المضارب الحسانية. كانت، من بين أشياء أخرىٰ، مدارسَ تكوينٍ للمرابطين وهم معلمو القرآن الذين كان بعضهم يجد مهنة التهجيء والتحفيظ حتىٰ لدىٰ القبائل المحاربة، حيث يقومون بتحفيظ القرآن للأولاد والبنات ويحصلون مقابلها علىٰ القماش والأبقار عندما يكملون المهمة وفي أثناء إكمالها. ويجب ألا ننسىٰ أن القرآن كان يحمل قيمة طلسمية وتحصينية بالِغة عند سكان الصّحراء، إضافة إلىٰ قيمته التّعبُّدية؛ لذا كان أساسيًا للمجتمعات، ليس فقط في ممارسة دينها، بل في عقلنة العالم من حولِها والتحصُّن من شروره وأهوالِه. وكانت محاظر الزوايا تستقطب السونينكي والبولار الذين كانوا يرسلون أبناءهم إلىٰ محاظر أهل سيدي محمود في نيورو، حيث يبقون في عهدة البيضان. وكان أهل سيدي محمود معروفين بمواظبتهم الدينية، بحيث إن لارتيغ وصفهم بأنهم «أكثر البيضان تعصبًا» (رغم أنه يعترف أنهم لم يكونوا يهاجمون السودان كإيدوعيش وأولاد الناصر، وأنهم لم يكونوا يحملون السلاح إلا للدفاع، وأنهم نادرًا ما كانوا يهاجمون للنهب رغم أنه كان فيهم جناح

---

(1) Poulet, 44-45.

محارب)[1]. كان الفُّلاّن، من الناطقين بالبولارية، تكرورًا أو بولارًا، أيضًا يقدمون من فوتا تورو للدراسة في المحاظر البيضانية حيث يبقون لمدة خمسة أو ستة أشهر[2]. ورغم أن البيضان لم يرضوا دومًا عن تعليم التكرور، إذ يصفهم مخطوط تيشيتي كتبه أحمد بن الشريف المختار بن بوعسرية في عام ١٩٥٦ بأنهم «يلحنون في قراءتهم لحنًا فظيعًا حتىٰ قال بعض أهل مصر [إنّ] قراءتهم تجوز للجُنب»، و«أن الرجل منهم يقرئ الصبيان باللحن»، إلا أن طبقتهم المتعلمة في مضارب البيضان في القرن التاسع عشر أسّست نظامها التعليمي الخاص، الذي أصبح يخرّج المئات[3]. ولا شكّ أن كلام بن بوعسرية تنميط وأنه لم ينسحب علىٰ عموم طبقة المتعلّمين السودان، الذين تطوّرت منهم حركة تعلّمت علىٰ يد البيضان وخصوصًا في بلاط الألمامي عبد القادر كان. وقد ظهرت نواتهم العلمية كطبقة متكونة في مجال البيضان حيث درس وتأثّر الحاج عمر (طال) الفوتي بعلماء إيدوعلي، كما يقولُ لنا رينيه كاييه[4]؛ وكما كان مثلًا حال الشيخ أحمد مختار ساخو الذي جال في الساحل قبل أن يتتلمذ علىٰ يد محمد بن محنض ويعود إلىٰ بوغىٰ مع مطلع القرن العشرين ويُنشئ مدرسة فوتية في فوتا الوسطىٰ صارت مقصدًا للبيضان والسودان[5]. وقد أقام هؤلاء العلماء مدارس كبيرة إبّان عودتِهم لأهاليهم كما كان حال فودي طالب صمب سيس السونينكي، الذي ذكرنا تأسيسه لمدرسة كومباندو؛ وكما كان حال علماء فوتا، الذين شكّلوا مثلًا مدرسة بير. ويبدو أن هذا لم يكن جديدًا مع القرن ١٩. فنحن نعرِف مثلًا من مصادر التجارة الأطلسية في أمريكا أن أحد أبناء هذه المنطقة هو عمر بن سعيد (١٧٠٧-١٨٦٣)، الذي يبدو اسمُه معرّبًا بفعل هذا الاحتكاك، قد أُسِرَ من السنغال وعُبِّدَ في أمريكا في عام ١٨٠٧. ويبدو أن لغته العربية كانت جيّدة؛ إذْ ألّفَ بها شذرات

---

(1) J. de Lartigue, p. 51.

(2) René Caillié, p. 113.

(٣) مخطوط من القرن التاسع عشر بحوزتي نسخة منه.

(4) C. Stewart, "Saharan Scholarship," p. 88

(٥) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ٣٧٢.

ما زال بعضُها محفوظًا. وتعكس لغته ثقافته الإسلامية والعربية. وقد ظلّ علىٰ دينه حتّىٰ تنصّر بعد امتزاجٍ طويلٍ مع ثقافة المستعبِدين، التي حاول أولًا الفرار منها. ولا نعرف هل درس عمر بن سعيد علىٰ المُدرِّسين البيضان في عهد الألمامي أم أنه درس في مدرسة بير السنغالية التي أسّسها خالي عمر فال (١٥٥٥-١٦٣٨) الذي درس بدوره في موريتانيا[١]؛ ولكننا نعرف أن المدارس الفوتية والسونينكية كانت منتشرة بنهاية القرن.

❀ ❀ ❀

داخل المضارب المتنقِّلة أو المستقرة كان التنظيم الأسري يميل عمومًا إلىٰ وضعية تبجيلية للمرأة في الأوساط الأرستقراطية، وخصوصًا الأميرية، وإن لم تترجم دومًا (وإن كانت ترجمت أحيانًا) إلىٰ سلطة معتبرة لها في المجال العام، وإلىٰ وضعية تخديمية لها في أوساط الطبقات الأدنىٰ، وإن تميّز هذا أحيانًا بفرصٍ لها للمساهمة في المجال العام. وبعكس كثير من مناطق العلم الإسلامي في هذا القرن، فإن تعدُّدَ الزوجات في الصحراء كان يكاد يكون معدومًا، وكان خاصًا ببعض الزعماء الدينيين كالشيخ سعد بوه مثلًا الذي كانت له أربع زوجات وعدة جارياتٍ في تسعينيات القرن التاسع عشر[٢]، أو ببعض الأمراء كمحمد لحبيب أمير الترارزة، أو هنّون العبيدي أمير أولاد امبارك في القرن الثامن عشر. علىٰ العموم، فقد كان تعدد الزوجات أمرًا نادرًا حتىٰ في أوساط الأمراء (بحسب تشديد رينيه كاييه)[٣]. ومن الواضح أن الزيجات كانت فئوية الطابع، رغم أن بعض الزوايا كان يتزوّج من حسان كما أن بعض الأمراء كان يتزوج من الزاويات[٤]. أما في الحالة العامة فنخمِّن، بناءً علىٰ الوضعيات اللاحقة، أن

---

(١) انظر سيرة حياته كما كتبها، ومترجمة إلىٰ اللغة الإنجليزية بهوامش وسلسلة مقالات بحثية مُنيرة:
Omar ibn Said, A Muslim American Slave: The Life of Omar Ibn Said. Trans. Ala Alryyes. Wisconsin: The University of Wisconsin Press, 2011.

(2) Fabert, p. 385.

(3) René Caillié, p. 128.

(4) Poulet, p. 10.

الزوايا كانوا يتأفّفون من زواج حسان بهم ربما كجزء من الإرث القديم في معاداتهم واحتقارًا لعدم اشتغالهم بالتعليم الديني؛ فقد كان الزوايا يحصِّلون شرعيتهم من مأسسة التدين ومعرفتة وتأطيره، وهي أشياء كانت تُدرُّ قيمة اجتماعية كبيرة، عكس التنظيم في أغلب المجتمعات المحاربة. نقول «أغلب»؛ لأن كثيرًا من المجتمعات المحاربة خصوصًا في تيشيت وولاتة والحوض قد بدأت تنتهج التعليم، وأصبحت فيها شرائح علمية واسعة تسمىٰ «**طلبة**».

وعلىٰ العموم، فقد كان الزواج غالبًا مؤسّسَة استثمارية الطابع تتوق إلىٰ إبقاء الرجل مُنتِجًا ومعيلًا في ظلِّ القبيلة أو الفخذ القبلي الذي ينتمي له. وقد صيغَ في هذا نظام تضامني يجعل الأعلىٰ طبقيًا يتزوّجون النساء الأفقر في قبيلتهم لمساعدتِهِن والارتقاء بأسرهن. ولعلّ مؤسسة الزواج كانت مؤسسة شبه مقدسة، وكان الطلاق نادر الحدوث حتىٰ في حالات الخيانة الزوجية، وهي ندرة كانت تجعله أمرًا عظيمًا، وكان ذوو المطلقة يقومون باحتفال مدة يومين ينحرون فيه الجزور لإظهار الممانعة والاعتزاز(١). في المقابل لم يكن الزواج سهلًا دومًا؛ إذ كان المهر يصل في المتوسط إلىٰ ١٥٠ قطعة من القماش الغيني أي ما يعادل ٩٠٠ فرنك فرنسي (٤،٥ من الإبل حسب حسابات بولييه، أو أربع أو خمس بقرات كما شاهد مونغو بارك في أسره لدىٰ أولاد امبارك في أواخر عقود القرن الثامن عشر)(٢). أما العائلات الكبيرة كتلك الخاصة بالمشايخ والأمراء، فقد كانت تفرض أحيانا ٦٠٠٠ فرنك فرنسي علىٰ الخاطِبين. وكانت ظروف الزواج تُقامُ في أجواءٍ منفتحة؛ إذ كان الخاطب يحصل دومًا علىٰ موافقة الفتاة، ومواعدتها في أحيان كثيرة، قبل أن يتقدّم بطلب يدها من أمِّها التي تحوِّل الطلب إلىٰ الأب، ثم يتم «العقد» بعد الموافقة ويقام العرس في أجواء من الأهازيج وضرب الدفوف والطلقات النارية والرقص(٣).

في الزواج كان النساء يضمَنّ الحماية من رخصة الإسلام بتعدُّد الزوجات،

---

(١) نفسه، ص ١٢.

(2) Mungo Park, p. 137.

(3) Poulet, p. 11; René Caillié, pp. 137-140.

ويَضْمَنّ أحادية الأزواج بعدة ديناميكيات: أولها يبدأ بعقود «**لا سابقة ولا لاحقة**». ولم يكن يندر أن توقِّعَ المخطوبة عقدًا مكتوبًا مع الزوج يتيح لها التحكّم في مستقبل الحياة الزوجية، ويضعها في حلٍّ من الزواج في حالة أخلَّ الزوج بتلك الشروط، وكان هذا العقد يُكتب بحضره الشهود، كما هو حال هذه الوثيقة المكتوبة في عام ١٨٦٧:

> الكاتب علىٰ عقد المختار ابن الأعمش، لمي بنت جدين ابن أحمد عم، ووقع العقد علىٰ صداق مبلغُه خمس مائة عديلة نصفها حال ونصفها مؤّجل لثماني سنين، وشرطَتْ عليه طلاق زوجه السابقة وألاّ يتزوج عليها ولا يتسرّىٰ ولا يُخْرِجها من بلدها، فإن فعل شيئًا من ذلك فأمرُها بيدِها، وقَبِلَ المختار هذا كله والسلام. وكتبه من حضر العقد المذكور وشهد عليه في الليلة الأخيرة من جمادىٰ من عام ١٢٨٤ عبد العزيز بن إبراهيم بن حامن غفر الله للجميع، آمين، وعلىٰ ما بأعلاه حرفًا[١].

ولعلّ المواعدة أو التعشّق بعد الزواج لم يكن يندُر. ولعلّ في هذا تواصُلًا مع العادات التي ذاعت في القرون السالفة وقد سجّلها الزائرون أمثال كاييه وكاداموستو وغيرهم. ويُذكَرُ في القرن التاسع عشر، وتحديدًا في ستيناتِه، تعشّق البخاري بن أهبال في آدرار لامرأة متزوِّجة مع غيلاني هو ابن الدِّيك. ويبدو أن المُواعِد العاشِق أفلحَ في افتداء معشوقتِه من زوجِها فأعطاه مالًا مقابل تطليقِها له[٢]. ورغم أن عادة الافتداء هذه لا تبدو مألوفة بالنسبة للمجتمع البيضاني في تشكُّلاتِه اللاحقة إلاّ أنها تبدو من السرد المذكور اعتيادية، إن لم تكن كانت عادة. ومهما يكن من أمر فإن زواج المطلّقات كان، كما يظلُّ نسبيًا، ذائعًا.

❀ ❀ ❀

ورغم أن النسوة لم يكنّ متعلمات غالبًا، إلا أن نسوة الأعيان كن في وضعية اجتماعية مهمة. وفي القرن الثامن عشر كان صوت مونغو بارك يعبِّر عن أبهتهن، التي رأىٰ فيها شبهًا بالأرستقراطية الأوروبية فقد كانت:

---

(١) من وثائق مخطوطة في مكتبة آل بلعمش.

(٢) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ١٣٩.

الملكة فاطمة، وبضع نسوة أخريات من الطبقة العليا، كالنساء العظيمات في بعض أنحاء أوروبا، يقضين وقتَهُن أساسًا في محاورة الضيوف ويؤَدِّين واجباتهن أو يؤَدِّين زينتهن أمام المرآة. أما النسوة الأقل شأنًا فكُنّ يقضين وقتهُنّ في واجبات منزلية مختلفة. كن سخيفاتٍ وثرثاراتٍ وعندما كان أيّ شيء يعكِّر صفوهن، فإنهن كنّ يوجهن الغضب إلىٰ جواريهن اللواتي كنّ يعاملِنهن بتسلّط واستبداد(١).

في قرننا هذا كانت صورة نساء الأعيان ما زالت صورة أرستقراطية كما وجدَها مونغو بارك قبل قرن من تقرير لارتيغ الذي كتبَ أنهن كنّ «عمومًا صغيرات ومُعدّات بطريقة رائعة، لهن نظراتٌ عميقة هذّبتها حواجِب طويلات وكانت لهن أطرافُ عيونٍ في غاية الروعة بشكلٍ يثير الدهشة إذا نظرنا إلىٰ نوعية الأعمال القاسية التي كنّ يَقُمْنَ بها، [ولكن] في قبائل معينة لم يكن النساء يقمن بأيّ عمل، لا في المنزل ولا في أعمال الخياطة والحياكة»(٢).

كانت الأعمال الشاقة التي تكلّم عنها لارتيغ تتعلّق في غالبها بالأُسر التي لا عبيد لها، فكان العبء فيها يعود علىٰ النساء في حلب المواشي وطحن الذرة والقمح وإعداد السمن أو الرائب من الألبان إضافة إلىٰ نسج الصوف ودبغ الجلود وحياكة الخيام ونسج الزرابي علاوة علىٰ أعباء الأمومة والتمريض(٣). أما في البيوتات ذات العبيد فقد كان الواجب المنزلي للزوجات البيضانيات يقتصر علىٰ الإشراف علىٰ العبيد والجواري عند تحضير الملابس للأزواج والأبناء(٤). وكما يُنبِئُنا لارتيغ فقد «كن يقضين الوقت في الأكل والنوم؛ إذ إن السمنة علامة النبالة والجاه الذي يُشرِّف الأزواج»(٥).

وكما نعرفُ من صور المجتمع البيضاني في سابق القرون، فإن هذا التسمين كان ممارسة تُفرض جبرًا بعادة «**لبلوح**» التي كانت تديرها الأمهات أو تُكلّف بها

---

(1) Mungo Park, p. 153.

(2) R. de Lartigue, p. 42.

(3) Ismail Hamet, p. 32.

(4) Poulet, 12.

(5) J. de Lartigue, p. 42.

إحدىٰ الجواري فتقوم بقسر الفتيات وتسومهنّ شتىٰ صنوف الألم في أثناء هذه العملية فتقرصهنّ بـ «**الزيار**»، وهو كلابة خشبية للقرص الموجع إلىٰ حدِّ إراقة الدماء. وكانت هؤلاء المربيات قاسيات علىٰ الفتيات، فيما اعتقد رينيه كاييه أنه انتقام منهن علىٰ قسوة الأسياد عليهن. ولا شكّ أنه أهملَ اعتبار العامل الثقافي والجمالي لهذه الممارسة، حيثُ في القرن السابق لاحظ مونغو بارك العادات نفسها التي كانت تقوم بها الأمهات وبالقسوة والشدة نفسها. ربما لم يفهم كاييه أهمية تسمين الفتاة؛ لأنها كانت تعني مستقبلها، وأحيانًا مستقبل أسرتها. ولم تكن الفتيات يصلن إلىٰ سن الثانية عشرة حتىٰ يصرن في ضخامة غير طبيعية، ولكن هذه السمنة كانت تنقص بشكل ملحوظ بعد سن العشرين وبعد الزواج[1].

ولعلّ إحدىٰ جميلات الترارزة، التي اشتهرت بنَيْلِها هذه المواصفات الجمالية المشدّدِ عليها، كانت عيشة جول، وهي جارية سودانية ذكرها النابغة الغلاوي في **نظم الطريد**، قائلًا:

ولـم تـزل عـيـش جـول بـالـطـرب ... وضـربـهـا الـمـزهـر بـيـن الـعـرب
ولـبـسـهـا مـن فـاخـر الـثـيـاب ... وشـربـهـا مـن سـكـر الـعـبـاب
والـخـبـز والـقـديـد والـثـريـد ... إلاّ لـقـطـع ذات الـوريـد
ووحـلـت عـيـش جـول فـي الـوحـل ... لـكـون حـيـاتـهـا لـم تـنـحـل[2]

اشتهرت عيشة جول بعظم جسمها وليونة جلدها وجسمها وبأناقتِها وغلاء ثوبِها. ويبدو أن سمنتَها قد عادت وبالًا عليها عندما لم تستطِع عبور النهر إبان وقعة **أباخ** في عام ١٨١٧، التي انهزم فيها جيش اعمر ولد المختار أمام خصمه الحرّون محمد ولد اعلي الكوري، المتحالف مع أمير إيدوعيش القوي، امحمّد ولد محمد شين، فغاصت في النهر من ثقل جسمها. وبقي جسمها في الذاكرة كما يظهر في تأريخ الغلاوي. أما زوجة اعلي الكوري، قتيل **نيجراين** في عام ١٧٨٦، التي اعتبرت المصادر الفرنسية أنّها كانت سبب حرب الترارزة ولِبراكنة، فقد ذاعت مقولة غولبري عنها أنها: كانت «لتعدَّ وحشًا في أوروبا» من شدّة كبرها:

(1) René Caillié, p. 99-100.

(٢) محمد النابغة بن عمر الغلاوي، نظم الطريد، مخطوط بحوزتي، ص ١.

كلما كانت المرأة أسمن كلما كان من غالب المؤّكد أنها ممتِعة، وتُفضّل المرأة التي لها خمسون رطلًا زائدة من اللحم. ويهيم الأمراء بالخصوص بالنساء ذوات السمنة العظيمة. فالمرأة التي أغواها محمد المختار من اعلي الكوري، التي كانت في عام ١٧٨٤ سببَ الحرب بين التروزيين والبراكنيين، كانت علىٰ درجة من ضخامة الحجم إلىٰ حدّ أنها في أوروبا كانت لتُعتَبَرَ وحشًا(١).

وبطبيعة الحال، فقد كانت القيم الجمالية للبيضان تختلف تمامًا عن القيم الجمالية للوافدين عليهم؛ فبالإضافة إلىٰ السمنة فقد كانوا يحبّون في الفتيات الأنيابَ البارزة، وهو ما يُعرف في ثقافتهم بـ «التِّشراكْ». وكما يُبلِغنا كاييه فمنذ عشرينيات القرن والأمهّات يحاوِلنَ تشكيل أنياب الفتيات الصغيرات وإبرازها وتحديدها(٢). ولا شكّ أن قارئ القرن الحادي والعشرين، وخصوصًا من خارج الثقافة البيضانية، قد يجد هذا مستغربًا. ولكن استغرابه سيزداد فقط لو علِم أن بثور الوجه وثآليلَه كانت تُعتبر أيضًا علامة جمال كما سجّل ذلك مونغو بارك وكما نعرفه من الشعر الغنائي البيضاني القديم. ولم تكن بالضرورة حياة هؤلاء النسوة حياةَ كدَر، كما في بعض الأدبيات الرومانسية الاستشراقيّة، ففي معظم الأوقات كانت النساء يتزاورن في المضارب(٣)، ويقضين الوقت في الأحاديث وممارسة ألعاب النساء كقراءة الحظ و«**اكرور**»، وهي لعبة حسابية وغيرها.

علىٰ العموم، فقد كانت قيمة النساء عالية في المجتمع البيضاني وكن يتمتّعن باحترام تمليه الفروسية والفتوّة التي لا تكتمل الرجولة من دونها. وكانت أمثلة هذا تحدث غالبًا في حالات الحرب عندما كان المحاربون المنتصرون، الذين تُتاح لهم حرية سلب الأحياء المهزومة، يتركون بعض الأمتعة للنساء اللواتي

---

(1) Golberry, "Customs and Charecter of the Moors of Zaara", in Andrew Kippis, William Godwin, (Eds) *New Annual register or General Repository of History, Politics and Literature for the Year 1803,* Trans. F. Bladgon, Esq. London: G And J. Robinson, Paternoster-Row, 1804, 127.

(2) René Caillié, 100.

(3) Poulet, p. 11.

يلقَوْنَهم في الحي المُنتهك. ورغم معقولية المؤشرات علىٰ حالات اغتصاب في حالات الغزوات، كما قد يوحي به مثلًا ارتباط كلمة «غزوة» بكلمة «اغتصاب» اللتين تشتقان من فعل «**طاح**» ومن فعل «الطيحة» أو الهجمة إلاّ أنّ معظم، إن لم يكن كلّ، النسوة البيضانيات لم يكن يتعرضن للغصب أو الاختطاف الذي كان يخضع له العبيد والجواري،(١) وإن كان النساء أول المتضرِّرين من الغزوات، كما كان شأن عام الذريرة في آدرار(٢) أو وقعة أباخ في الترارزة مثلًا.

وفي داخل الأسر كان هذا الاحترام مشاهدًا في العادات الغذائية والتواصلية؛ إذ لم يكن الرجال يأكلون قبل نسائِهم اللواتي كن يأكلن وحدهن. كما كان هؤلاء الرجال يأتون لزوجاتهم بالجواهر الغالية من الذهب والفضة، كما لاحظ بوليه. أما فتيات الحي فكن يتجمّلن أيضًا بأبهىٰ الحلي من القلائد والأقراط. إلاّ أن بوليه لاحظ أن اعتناء النساء بالزينة لم يكن يقابله اعتناء بالنظافة، فقال إن نسوة أولاد الناصر ومشظوف لم يكن يتحمّمْنَ غير مرة في الشهر في فصل الصيف، وأنهن لم يكنّ يتحممن طوال فترة الشتاء. وربما كانت هذه مبالغة، ولكنه كتب أن نسوة إيدوعيش وأولاد امبارك وأهل سيدي محمود وأولاد عبد الله كن دومًا أقل إهمالًا(٣).

❀ ❀ ❀

لم يحمل الزوار الأوروبيون انطباعًا جيدًا غالبًا عن طريقة لبس البيضان، فقد اعتبر لارتيغ أن الرجال كانوا متوحشين، مقارنة بالنساء؛ إذْ كان الكل يلبس القماش الغيني أو **النيلة** الزرقاء وكانت شعور الرجال غالبًا طويلة «والكل قذر»، حسب عبارة لارتيغ(٤). وربما لم يستسغ لارتيغ الذوق البيضاني في اللبس، بل إنه لم يعتبره ذوقًا أصلًا. ولكن جزءًا كبيرًا من التجارة والمنتوج في الصحراء كان يُنفق في اللبس منذ القرن الثامن عشر، حيث ازدهرت الدراريع وأقمشة النساء

---

(١) نفسه، ١٣.

(٢) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، ١٣٩.

(٣) نفسه، ص ١٠-١١.

(4) J. de Lartigue, p. 42.

المعروفة **بالغنادير**. وكان أغنياء البيضان أو محظوظوهم يلبسون الدراعة التي كانت عريضة بحجم الجسم وتحتها سروال، وكلاهما معدٌّ غالبًا من القماش الغيني. وربما بقيت الدراعة لوقتٍ لبسًا أرستقراطيًا نخبويًا؛ إذ لاحظ مونغو بارك في القرن السابق أن اللباس القطني كان نادرًا وكان ميزة الملك علي ولم يكن أمام غير القادرين علىٰ شرائه إلا أن يلبسوا القشابة المُعدّة من خمسة أكواع من القماش(١). ولكن الأحذية كانت نادرة(٢) رغم أنها كانت متوفرة في مجال أولاد امبارك، بل كانت ضرورية بسبب شدة الحر. وستستمرّ هذه الحالة من سيادة القشابة حتىٰ في مرحلة متقدمة من القرن العشرين، إذ سيشير إليها فريرجان وغورو باعتبارها اللبس السائد. أما العبيد فلم يكونوا يلبسون غير قطعة جلدية من الركبة إلىٰ الخصر(٣). ونعرفُ من المصادِر التصويرية أن كثيرًا من البيضان كان ما يزال يلبس الملابس المُعدّة من جلود الماشية في هذا العصر.

كانت للبيضان أيضًا نسخ من القشابة تصنع من «النيلة» أو القماش الغيني الأزرق، وكانو يلبسون منها فضفاضة قصيرة الجوانب تدعىٰ «**الكَندورة**» أو «الغندورة»، كانت النساء يخيطنها من القماش الغيني. وكانت تُلبس غالبًا مع سراويل قصيرة سوداء من **النيلة**. ومن المهم أن تكون تلك السراويل سوداء؛ ذلك أن السروال الأبيض كان رمز الإمارة في الترارزة وكان يُمنع علىٰ غير الأمير؛ إذ كان رمزًا للإمارة منذ القرن السابع عشر(٤). وربما لم تكن «الغندورة» غير «القشابة» التي أشار إليها كاييه. ومهما يكن من أمر، فإنها كانت غالية وكان البيضان يعتنون بها ويضعونها في الصناديق وقت الأمطار خوفًا عليها من البلل(٥). أما النساء فكن يلبسن الملحفة، المعروفة أيضًا في حينه بال**كَندورة** في الجنوب والملحفة في الشمال (حيث ترد باسمها «**الملحفة**» في تاريخ سيدي ولد

---

(1) René Caillié, pp. 159-160.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ٥٤.

(4) Poulet, p. 13.

(5) René Caillié, p. 55.

الزين والغندورة في التقارير الفرنسية)، التي كانت تصل إلىٰ نصف «بيصة» يتم لحف المرأة بها ثلاثًا بما يُغطي كامل جسمها ورأسها[١].

وإذا كان لارتيغ لم يستسغ الثياب البيضانية، فإن البيضان في المقابل لم يستسيغوا الثياب الأوروبية كما لاحظ مونغو بارك. وفي القرن اللاحق كان اللبس الأوروبي ما زال نادرًا. ولعل أوّل بيضاني يُشاهد بالبنطال الأوروبي هو ذلك التروزي الذي شاهده رينيه كاييه في البراكنة قادمًا من ميناء هدي، وربما كانت ملابسه الأوروبية مسلوبة من غرقىٰ سفينة La Rose-Virginie التي غرقت في تلك الفترة في حوض آرغين[٢]. علىٰ العموم، فقد كانت الثياب نادرة وكان الأطفال عرايا حتىٰ سن البلوغ أو سن حفظ القرآن، ولم تكن الفتيات يلبسن القماش الغيني قبل سن البلوغ، أما الصبية فكانوا في أحوال معينة يلبسون القشابة[٣].

❀ ❀ ❀

لعلّ إحدىٰ أساطير الصّحراء هي أن أهلها اقتاتوا حصرًا علىٰ الألبان واللحوم الحمراء فقط. ولعلّ أساس هذا التعميم، النافي للأنماط القمحية والنباتية من الغذاء، كان قائمًا في ديمومة الألبان واللحم، علىٰ حساب غيرهما. ويمكن القول إن السواد الأعظم من بيضان القرن اقتاتوا في أغلب مأكولِهم علىٰ الألبان والقديد. وكان يُنظر للبن علىٰ أنّه مأكول، وكان أساس الغذاء في منطقة البراكنة وتگانت بحيث إن البيضان بما فيهم الأمير أحمدو ضحكوا كثيرًا من رينيه كاييه عندما قال إن اللبن لا يسدُّ الرمق[٤]. وقد ذكر مؤرِّخٌ بيضاني في مطلع القرن العشرين أن معاش إيدوعلي في الخريف هو اللبن، أما المأكول فكان لهم حصرًا في الصيف والشتاء. أما قبيلة الرعيان فقد جزم أن معاشهم اللبن[٥]. وبسبب ديمومة اللبن في الحياة اليومية كان البيضان قادرين علىٰ استنضابه في أنواع غذائية

(١) نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) نفسه، ص ٧٨.

(٣) نفسه، ص ٩٠.

(٤) نفسه، ص ٦٦-٦٧.

(٥) ولد الزين، كتاب النسب، ص ٤، ص٣١.

مختلفة، فكانوا يعدون منه شرابًا في أقداح سيعرف بـ «**الزريك**»، هو عبارة عن مذق الماء باللبن الرائب المخثر في جراب جلدي خاص يعرف بـ «**الشكوة**» أو في «**المروَب**» الخشبي. وكان اللبن المخثر نفسه يستخدم في خضِّ زبدة «**الشنين**» التي تقدم شرابًا لبنيًا في الأقداح الخشبية(١). ومن الوجبات اللبنية كانت يبرز حساء «**الصربة**» أيضًا المطبوخة من لبن ما بُعيد مخاض الشاة، التي يدلّ ارتباط اسمها بوفود المصالحات أنها كانت وجبة مناسبات تقدم في الاجتماعات السياسية أو الاجتماعية الخاصة.

ذكر رينيه كاييه أن البيضان لم يكونوا يستخدمون اللحوم إلا في فترة الخريف في الغالب(٢). وبسبب الندرة والطلب علىٰ الحبوب كان هنالك تقنين اجتماعي لتقاسم أعضاء الذبيحة وللمحاصيل، فكان الأسياد في لِبراكنة مثلًا يستأثرون بالألبان والحليب والحبوب بينما لا يطعمون عبيدهم إلا الصمغ. وربما كانت هذه المشاهدة التي نقلها كاييه ظرفية؛ ذلك أنه مع عقود القرن التاسع عشر الأولىٰ تمّ إلحاق العبيد كثيرًا بالنظام الغذائي العام وأصبحوا يطعمون من الحبوب(٣). ولكننا نعرف أن البيضان كانوا يُقسّمون أعضاء الذبيحة طبقيًا، فيكون لكلّ مجموعة حقٌّ في أجزاء منها. ومن المهم أن نعرف أن القرن التاسع عشر شهد طفرة في توفُّر الأغذية في الصحراء، وإن بقيت الندرة حالة عامة، وخصوصًا في سنين القحط. فمع العقود اللاحقة لكاييه زاد توفر الدخن والذرة البيضاء والشعير التي زاد استهلاكها في أزمنة الجفاف عندما كان البيضان يتقاطرون علىٰ ضفاف النهر(٤). وزادت الحاجة الغذائية للحبوب، بحيث إن استهلاك الترارزة من الحبوب كان أكثر من استهلاك الضفة اليمنىٰ؛ فقد نما السكان بسرعة في مجالهم ووصلوا إلىٰ ٣٠٠٠٠ من الرجال وحدهم، وهو ما كان أكثر من سكان غوري وسان لويس مجتمعين(٥).

---

(1) René Caillié, p. 43, p. 58, p101.

(٢) نفسه، ص ٦٧.

(٣) كاي، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٩٢-٩٣

(٤) نفسه.

(5) Webb, Desert, p. 38.

مع تقدّم القرن كانت وضعية البيضان الغذائية قد تحسّنت وتنوّعت كثيرًا. وفي نهاية القرن كان بإمكان لارتيغ الحديث عن نمط غذاء مختلف، حيث الكسكس المصنوع من القمح أو الشعير والأرز والفول. لقد تعرّف الكثيرون إلىٰ الأرز، غير المعهود سابقًا، الذي كان يُستورَدُ من التجارة مع الفرنسيين، وإن بقي لفترة حكرًا علىٰ القبائل الجنوبية وبقيت قبائل آدرار والرقيبات، التي كانت تتاجر أساسًا مع الإنجليز، لا تتوفر علىٰ الأرز والذرة والقمح الجيد[1]. في الجنوب أيضًا كان الكسكس وجبة شائعة وقديمة تعود إلىٰ القرون السالفة، وقد قامت رفقة من البيضان بطبخه كوجبة عشاء وأكله مع رينيه كاييه[2]. وكان البيضان أيضًا يعرفون طبخة اللحم والزبدة المصهورة[3]، وبفضل توفر حبوب القمح والشعير أمكن لهم إعداد وجبات «العيش» التي هي عصيدة من القمح يرافقها لبن أو ماء[4]، وأحيانًا كان يوضع معها ثمار شجر الهجليج[5]، المعروف لدىٰ البيضان **بالتوكَة**.

في القرن التاسع عشر عرف البيضان **الأتاي** أو الشاي الصحراوي الذي أصبح معلم حياتهم. لم يتعرّفوا إليه عمومًا إلا في ستينيات القرن التاسع عشر من خلال قوافل الشمال، ولكنه سيتغلغل بسرعة حتىٰ يصبح أهمَّ عادة غذائية موريتانية، وسيصبح جزءًا من مكونات الشخصية الموريتانية لاحًقا. قبل أن يصل الشاي إلىٰ معظم المجال الموريتاني كانت النخب الصحراوية التي تفد إلىٰ المغرب قد بدأت تتعرف إليه، حيث كان رائجاً وفي خمسينيات القرن شربه الشاعر محمد ولد محمد العلوي، وذلك في الطريق إلىٰ رحلته إلىٰ الحج، في المغرب في جماعة من «أفاضل مراكش» واستساغه كما يتجلّىٰ من قصيدة له:

يـا لـيـلـةً راحَ فـيـهـا عـازِب الـوَطـر ... باتَ الصفاء بها يَسْطو علىٰ الكَدَر
طـابـت مَـجـالِـسُـنـا فـيـهـا وخـامَـرَنـا ... حُسن السرور علىٰ مَوْضونة السرر
إذْ بـات أحـمـدُ يَـسْـقـيـنـا عـلـىٰ مَـهـلٍ ... أشهىٰ من الراح في أبهىٰ من الدُّرَرِ

(1) R. de Lartigue, p. 46.

(2) René Caillié, p. 49.

(٣) نفسه، ص ٦٣.

(٤) نفسه، ص ٥٩-٦٠.

(٥) نفسه، ص ١٢٥

فيه النهار عشاء والنعايش والـ أنهارُ تجرِي فيهِ وفيهِ مُثْمِرُ الشجر[١]

ويبدو أن فترة الخمسينيات هذه كانت فترة رواج الشاي حتىٰ في المغرب الذي عرفه علىٰ الأقل منذ القرن الثامن عشر، وإن لم يذع شربه بين النخب قبل عشرينيات القرن التاسع عشر. وحتّىٰ هنا بقي محصورًا. ولعلّ الخمسينيات هي ما أتت معها بطفرة في إذاعة شربه في أوساط الشّعب الأعّم؛ ذلك أن هذه الفترة، وهي فترة حروب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)، سدّت منافذ بحر البلطيق عن البواخر والعبّارات الإنجليزية؛ فتحوّلت المراكب التي كانت تنقل الشاي إلىٰ السواحل المغربية في عام ١٨٥٤ واكتشفت قدراته الشرائية فيها[٢]. ويمكننا أن نُخمِّن أن هذا رخّص أسعارَ الشاي وعمّمَ استخدامه. وإذا كانت هذه الفترة تصلح لتأريخ شعبية الشاي في المغرب، كما ذهب إلىٰ ذلك بعض المؤرخين المغاربة أمثال مصطفىٰ بوشعراء[٣]، فإن هذه العادة تفرّعت من هنالك ودخلت المجال الصحراوي الموريتاني مباشرة في العقد الموالي.

رغم هذا، إلاّ أن بعض أوائل من تعرّضَ لأصول الشاي ذهب إلىٰ أن الشاي عادة مستأصِلة في تاريخ الصّحراء وأن الجزائريين والمغاربة عرفوه من الشعب القاطن في موريتانيا. وقد نبّه ألبير لاريش في وقت مبكِّر علىٰ صعوبة هذا التّخمين؛ لكونِه يستعصي علىٰ المعطيات التاريخية في البلاد[٤]. بل يبدو، إضافةً لهذا، أن الشاي لم يزدهر في الصّحراء إلاّ عقب فورتِه في المغرب التي أشرنا إليها. ولعلّ منطقة بوجدور كانت مصدر هذه المادة إلىٰ الصّحراء. وحسب المحكي، فقد وصلت أول قافلة من الأتاي من الشمال الصحراوي قادمة في ركب تجاري فيه تجار من تكنة وثلاثة من أولاد بوسباع وتاجر يهودي يُدعىٰ بدجوخ في الفترة ما بين (١٨٥٨-١٨٧٥)[٥]. ولعلّ القبائل الشمالية، وخصوصًا

---

(١) الشنقيطي، ٤٥-٥٥.

(٢) مصطفىٰ بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب (١٨٦٣-١٨٩٤)، الرباط: المطبعة المكية، ١٩٨٤، ج ١ ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) نفسه، ص ٣٢٦.

(4) A. Leriche, "De l’origine du thé en Mauritanie," *Bulletin de VI.F.A.N.*, XIII, 1951, 868.

(٥) نفسه.

أولاد دليم وأولاد بوسباع، هي من أذاع استخدامه في آدرار. ويورِد لاريش كيف كان استخدام الشاي ذائعًا في أوساط أولاد بوسباع، ولعلّ استخدامَهُم له في قريِ الضيوف، بدلًا من مشروب «الزريك»، قد أثّرَ في أمير آدرار، المختار ولد أحمد ولد عيدة، الذي شغف بالمشروب كثيرًا. كما أن شغف الأمير الآدراري، امحمد ولد أحمد عيدة، به الجديد ساهم في جعله شعبيًا؛ ذلك أنه بدأ يفرضه بصفته إتاوة يأتي بها ملحقوه الآدراريون في قدح يومي جنبًا إلىٰ جنب المنتجات التي يدفعونها كالتمر. ويبدو أن الشاي قد وصل بالفعل إلىٰ استهلاك شائع في آدرار في سبعينيات القرن التاسع عشر(١).

وشهد القرن أيضًا توسع تدخين التبغ الذي كان يُستَقدَمُ من السنغال وكان الأعيان يتلّهفون له. وعندما التقىٰ رجل تگانت القوي، الحسين ولد بكار ولد اسويد أحمد، بمبعوث الفرنسيين إلىٰ الشراتيت، دودو سك، فإنه توقع منه تبغًا لأتباعه، وهو ما فعله سك وإن ضنّ به. ويدلُّ تشعُّب تجارة التبغ في الصحراء في هذا القرن في الصحراء علىٰ ازدهاره وإن ظلّ بضاعة ترفية. فقد كان يُستقدم من الجنوب ومن الشمال من واد نون ومن الصويرة المغربية. وكان التجار العابرون للنهر يدفعونه للشراتيت المسيطرين علىٰ المعابر مع القماش الغيني مقابل النفاذ(٢). كان التبغ يزرع أيضًا في توات حيث كان سوقه المركزي زاوية كنتة، وكان تجار أولاد غيلان أيضًا يأتون به إلىٰ أزواد(٣). وبفعل ازدهاره في هذه المناطق الكنتية كان تجار كنتة في منتصف القرن يتاجرون به من توات إلىٰ دوري Doré(٤). كان هذا التبغ يُدخّن في الغلايين التي كان الصناع البيضان يعدّونها ويعدّون معها الولاعات المرافقة(٥). وستُعرف عدة التدخين بالتبغ بـ «**الشروط**» (العدّة أو الآلة). ورغم تنامي الجدل بين مثقفي الصحراء وعلمائها حول حرمة التبغ، إلا أن المعطيات تحيل إلىٰ ازدهاره، حتىٰ في أوساط بعضِ هؤلاء

(١) نفسه، ص ٨٦٩-٨٧٠.

(٢) ابن المقداد، تقرير عن مهمة في تكانت، في: وثائق من التاريخ الموريتاني، ص ١٣٠، ١٤٩.

(٣) محمد الصالح حوتية، ج ١ ص ٥٥، ١١٩.

(4) C . Stewart, p. 82.

(5) Poulet, p. 8.

العلماء. وفي عشرينيات القرن كان الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا يدافع عن شرعية استهلاكه ضدّ من يقول بحرمته فقال هذه الأبيات:

تـلـوم أن تـعـاطـيـنـا كـؤوسًـا ... تـذكّـرنـا كـؤوس الـسـلـسـبـيـل
تـحـاول أن تـحـرِّمـهـا عـلـيـنـا ... فـلـيـس لـمـا تـحـاول مـن سـبـيـل
تـريـد عـلـىٰ إبـاحـتـهـا دلـيـلًا ... مـتـىٰ احـتـاج الـنـهـار إلـىٰ دلـيـل
أصـول الـحِـلِّ عـــدُّوهـا فـعـدُّوا ... نباتَ الأرض من تلك الأصول[1].

(١) أحمد بن الأمين الشنقيطي، ٢٧٧.

الخاتمة

يطرحُ تختيم التواريخ مشكلة كبيرة؛ ذلك أنّه، وخصوصًا في ظلِّ تقاليد تأليفية تربطه بالتلخيص، قد يروم اصطفاء خلاصة أو استخلاص رؤية ونمط، وهذه أشياء من المفترض أن التاريخ، أي تاريخ، يفنِّدُها. إن التاريخ بما هو حيوات للنقائض وجدليات للعادات والغرائب، لهو مبدئيًا ضد القول الفصل في التاريخ. وما يقوله لنا التاريخ هو أن كلّ ما نعرفه عرضة للتفنيد والترخيم. لهذه الأسباب، فإن فكرة «حياة الأمة» التي يرسمها التاريخ القومي أو الأقوامي، التي تستند علىٰ جوهر وأخلاق ثابتة عبر التاريخ، تبدو في حدِّ ذاتها فعلًا غير تأريخي، بل تبدو مقاومة للتاريخ. لقد حاولتُ هنا مقاومة هذه المقاومة عن طريق فتح إمكانيات جديدة لتصور التاريخ الموريتاني.

وفي البداية، تبدو هذه المهمة ترفيّة في ظلِّ إلحاحية المهمة الأجدر التي حاولتُها هنا أيضًا، وهي رسم تاريخ عام لموريتانيا أولًا. غير أنني حاولتُ أن أخوضَ، في أثناء خوض مهمة التأريخ العام، وهي رسم القارِّ والواقِر والمَعْلَم والثابت، مهمة التفكيك، بل وإن المشروعان يبدوان لي واحدًا. ولا شكّ أن السرد التاريخي، الذي هو مرامي الأول، كما أتحتُ ذلك في المُقدِّمة، لا يُحبِّذُ الجدالات الأكاديمية التي تؤشكِل التاريخ أكثرَ مما تسرده؛ ولكنني حاولتُ تبطينها وإظهار الوعي بها في معظم فقرات هذا الكتاب. وكما ذهبتُ في المقدمة، فإنني أعتبر هذه المحاولة من المُحاولات الأوليّة، ليس من باب الاستعلاء علىٰ المحاولات السابقة، بل من باب الاصطفاف معها، فتلك محاولات رائدة بطريقة لا يأملُها هذا الكتاب، وهي أساسية في تكوينه. وما يبدو لي ضروريًا هو القيام

بحوار بين المصادر التاريخية المختلفة لموريتانيا، التي بقيّت تنعزلُ في ثقافات ولغات ومؤسسات وتقاليد بحثية وسردية مختلفة وغير متجانسة، والإتيان بها معًا من أجل بلورة صورة عامة يصبح علىٰ ضوئِها البحث الموضوعاتي أسهل.

تطرحُ المصادر عدة إشكاليات، فمن ناحية لا تبدو معظم المصادر الأجنبية، التي بقيت في كثير منها مجهولة للمؤرخ الموريتاني الاعتيادي، قريبة من الذاكرة البيضانية؛ لأن ملاحظات الأجنبي، رحالة وصحفيًا ومُختَطَفًا ومُستعبَدًا وكاتبًا وإداريًا واستعماريًا وتاجرًا وسماعيًا تندّريًا، بقيت تابعة لنظامه الدِّلالي وتابعة لأولوياته وظرفياته وتفضيلاته وسياساتِه ومفاهيمه الخاص والاصطفائي للغريب والنّادِر؛ أما ثقافة الصحراء فقد خلّدت وانتقت، وفي أحيانٍ كثيرة أسطرت، من تواريخها بما يُناسب العمل الأداتي والوظيفي لتاريخِها. ومن تعارُض هاتين الدّائرتين تنشأ الحاجة للإتيان بهما معًا، وإقامة حوارٍ بينهما لفهم الديناميكيات عبر التاريخ الصحراوي. وإنِّي، وإن وُفِّقتُ في العثور علىٰ كثير من المصادر الأجنبية التي لم يعرِفها المؤرخون قبلي (مع أنها كانت قابعة في الأرشيف) واستخدمتُ جلّ الأعمال الصحراوية والموريتانية؛ فإنني لا آسفُ إلا علىٰ عدم استخدام الشعر الشعبي لتقديم الصوت المحلي. والسببُ في هذا يعود غالبًا إلىٰ ضعف عمل المؤرخين الجامعين والمؤرخين المعلِّقين علىٰ تراث «لغنَ» وتحقيبه وخصوصًا منه ما له قيمة تاريخية. وبدوره، فإن غياب تاريخ شامل كبيرٍ وموّثق يعيق هذه المهمة. لا يسعني أيضًا إلاّ الأسف أن تاريخ التابِع، الذي حاولتُ سبره بقيَ ابتدائيًا في هذه البقاع، ما صعّب من بناء سردية متقدِّمة كالتي أمِلت بها. ولا شكّ أن الفراغات التاريخية الكبيرة، وحصوصًا في تواريخ المجموعات التابعة أو المُهمّشة هو مما يؤسفَ له بالمقام الأول.

ولا شكّ أن التقدمية التي يفترضها التاريخ الحداثي، التي بدورِها ترسم تحقُّقَ الأمة وتعاليها عبر التّاريخ، تطرحُ إشكالًا. وهي تطرحه خصوصًا لمؤرخ الصحراء، حيث كلما تقدم التاريخ ازدادت مصادرنا وصارت لغتُنا التأريخية أكثر ثقة وأكثر تأكيدًا. والمشكلة أن مشاكسة هذه الصورة الديناميكية تنجحُ أحيانًا في تقويض مبدأ الديناميكية الذي نعتقد أنه حاضرٌ في كلِّ تاريخ، وتعودُ بنا إلىٰ

تواريخ الجمود والأنساب. لهذه الأسباب حاولت تفادي صورة الأمة المتصاعدة عن طريق فتح فواصل لحياة الشعب في كل فترة. وتشير هذه الفصول إلىٰ ديناميكيات غير تصاعدية؛ إذ تُرينا حياة متنوعة ومتقادِمة، ولكن بلا غاية معلومة مسبقًا. وصحيحٌ أن الممالك والإمارات تصاعدت في القوة والثبور عبر تاريخ الصحراء، ولكن أفولها (كما هو حال المرابطين مثلًا) وصعودها (كما هو حال إمارات ومشيخيات القرن الثامن عشر والتاسع عشر) يبدو إما خلدوني الطابع أو غير منعزلٍ عن التاريخ العالمي، أو جزءًا من طفرة غير مسبورة الأغوار.

يبدو لي أيضًا أن من مهمات التأريخ استنقاذ تاريخ الصحراء من نمطية الهوية البدوية الثابتة التي يرسمها التاريخ النسبي، والذي يغدو بفعل هذه الترسيمة تقصيًا «للأصول» وإعادة حداثية لأسطورة الأب المشترك والنسب الشريفي النقي. ورغم الطابع الخلدوني لحياة الصحراء، إلاّ أن النقاء الهوياتي، الأساسي في الملحمة الخلدونية، يطرحُ إشكالًا في تاريخ الصحراء، ويبدو في عدة أحيان أيديولوجيا تبريرية. وفي هذه الإطار ترتفعُ الحاجة لدراسة تواريخ الاندماج والعيش المشترك والتوحد. إن التاريخ الذي رُمتُه يكشف أن قصة العيش المشترك والتخالط والتدامج قصة سرمدية وحاضرة في كلّ تاريخ الصحراء.

يبدو لي أن ما حجب قصة تعارف الشعوب الصحراوية لوقت، علىٰ حساب قصص الأنساب، هو صرف النظر عن ديناميكيات التجارة والتحولات الإنتاجية في الصحراء. وبدوره، فإن هذا غيّب تاريخ الشعوب المُهمّشة والأصوات «اللا مركزية». إن مساهمتي الأساسية هي إبراز هذه الأصوات عن طريق قراءة التصرفات الفردية في مجمل التحولات الإنتاجية والقيمية، وعن طريق رؤية انعكاسات هذه التحولات علىٰ الحياة المجتمعية والفردية في الصحراء. وبهذا المعنىٰ، فإن التاريخ الذي كتبته هو في أغلبه تاريخ شعبي لموريتانيا. آمل أنني وُفِّقت فيه.

أبو العباس ابرهام،

توسون، أريزونا، ديسمبر، ٢٠١٤

المصادر والمراجع

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله. الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ دولة فاس. أوبسالة: دار الطباعة المدرسية، ١٨٢٢.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي أكرم الشيباني. الكامل في التاريخ. ليدن، ١٨٧٩.

ابن الأحمر، إسماعيل. بيوتات فاس الكبرىٰ. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط، ١٩٧٢.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٩١٤.

ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن سعيد. جمهرة أنساب العرب. تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال. القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٨.

ابن حوقل النصيبي، أبو القاسم. صورة الأرض. ليدن، ١٩٢٨.

ابن خرذابة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله. المسالك والممالك. ليدن: بريل، ١٨٨١.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي. تاريخ ابن خلدون المسمىٰ بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، لبنان: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١.

ابن سعيد المغربي، أبو الحسن، علي بن موسىٰ. كتاب الجغرافيا. تحقيق إسماعيل العَربي. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠.

ابن طوير الجنة الحاجي الوداني، الطالب أحمد. تاريخ ابن طوير الجنة. تحقيق سيد أحمد بن سالم. الرباط، المغرب: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٥.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. فتوح مصر وأخبارها. تقديم محمد صبيح. القاهرة: مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، ١٩٦٨.

ابن قتيبة الدينوري، أبو عبد الله بن مسلم. المعارف. تحقيق ثروت عكاشة. مصر، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٩.

أحمد طه، جمال. مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين: ٤٤٨هـ/١٠٥٦م إلىٰ ٦٦٨هـ/١٢٦٩م: دراسة سياسية وحضارية. الإسكندرية: دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر، ٢٠٠١.

الإدريسي، الشريف. وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). تصحيح هنري بيرس. الجزائر: مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية، ١٩٥٧.

الاستبصار في عجائب الأمصار، مجهول المؤلِّف. نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد. بغداد: دار النشر للشؤون الثقافية العامة.

الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول. فيينا: ألفرد د كريمير، ١٨٥٢.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. الأغاني. تحقيق إحسان عباس ورفيقيه، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن جابر. فتوح البلدان. تحقيق عبد الله أنيس الطباع. بيروت، لبنان: دار المعارف، ١٩٨٧.

البكري، أبو عبيد الله. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (وهو جزءٌ من كتاب المسالك والممالك). القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

البرتلي الولاتي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق. فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن. القاهرة، مصر: مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ٢٠١٠.

بن أحمد يورة الديماني، آمحمد. إخبار الأحبار بأخبار الآبار. تحقيق أحمد ولد الحسن. الرباط، المغرب: جامعة محمد الخامس، ١٩٩٢.

بن الأعمش العلوي، الطالب محمد. النوازل، مخطوط من مكتبة أحمد بن أحمد محمود.

بن البراء، يحيىٰ. ملكيّة الأرض في موريتانيا: أبعادُها الاجتماعيّة والسياسيّة، دراسة في النصوص الفقهية والوقائع. الرباط: معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٩.

ــــــــــ. المجموعة الكبرىٰ لفتاوىٰ غرب الصحراء، (١٢ مجلّدًا): نواكشوط: الشريف مولاي الحسن ولد المختار الحسن، ٢٠١٠.

بن حامد، المختار. حوادث السنين. تقديم وتحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم. دار الكتاب الوطني، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠١١.

ــــــــــ. موسوعة حياة موريتانيا: الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب. تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٠.

ــــــــــ. موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠.

بن خالنا، والد. ورقة غير معنونة عن أنساب أولاد ديمان ومن لحق بهم. نسخة أحمد سالم ولد باكّاه، مخطوط.

بن الشيخ، سيديا، باب. إمارتا إدوعيش ومشظوف، تحقيق إزيد بيه بن محمد محمود. نواكشوط، موريتانيا: المعهد التربوي الوطني، ١٩٩٤.

بن عبد الوهاب، صالح. فتح الوهاب علىٰ الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية. تحقيق وإشراف الزاوية العلمية ولثقافية للعلامة محمد صالح ولد عبد الوهاب. نواكشوط، موريتانيا، ١٩٩٣.

بن محمد المختار، إسلمو. أباه بن محم عاشور: حياته وآثاره. نواكشوط، موريتانيا: المعهد العالي للدراسات. ١٩٨٣.

بن محنض، الحسين. تاريخ موريتانيا القديم والوسيط: ما قبل التاريخ إلىٰ الانتشار الحساني. نواكشوط: مطبعة دار الفكر، ٢٠١٠.

بنت ديدي، عائشة (محققة). حوليات تجكجة. نواكشوط، موريتانيا: جامعة نواكشوط، ١٩٩٥.

بوبريك، رحال. المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولاتة خلال القرنين ١٨ و١٩ مع تقديم ونشر تاريخ ولاتة. الرباط، المغرب: معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠٢.

بوحوش، عمار. التاريخ السياسي للجزائر من البداية حتىٰ ١٩٦٢. الجزائر: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧.

بوشعراء، مصطفىٰ. الاستيطان والحماية بالمغرب ١٨٦٣-١٨٩٤. الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٨٤.

بوطالب، محمد نجيب. سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢.

بونت، بيير. إمارة آدرار الموريتانية: نبذة تاريخية. ترجمة بوبة ولد محمد نافع. نواكشوط: المركز الفرنسي للأركيولوجيا، ٢٠٠٢.

البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي. أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. المغرب، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١.

__________. المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١.

التاديلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيىٰ. كتاب التشوف إلىٰ رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، المعروف بابن الزيات. تحقيق أحمد توفيق. الرباط، المغرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٨٤.

التازي، عبد الهادي. الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب. الرباط، المغرب: دار المعرفة، ٢٠٠١.

التمبكتي، أحمد بابا. نيل الابتهاج بتطريز الديباج. إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة. طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٨٩.

التيشيتي، حمي الله. النوازل. مخطوط.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي مجهول في القرن الثامن الهجري. تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي. معجم البلدان. بيروت، لبنان: دار صادر، ١٩٩٣.

حوتية، محمد الصالح. توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي): دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية. دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧.

الخطيب، لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجرُّ ذلك من شجون الكلام. تحقيق أحمد مختار العيادي ومحمد إبراهيم الكتاني. الدار البيضاء، المغرب: ١٩٦٤.

الدالي، الهادي المبروك. التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلىٰ بداية القرن الثامن عشر. بيروت، لبنان: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي علىٰ الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ. تحقيق محمد حاج صادق. مصر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

سيسىٰ، علي بوبكر سيسىٰ. تاريخ المجتمع السوننكي في موريتانيا. نواكشوط، موريتانيا: المركز الموريتاني للدراسات الاستراتيجية، ٢٠١٢.

الشنقيطي، أحمد بن الأمين. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام علىٰ تلك البلاد تحديدًا وتخطيطًا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك. مصر: المطبعة الحالية، ١٩١١.

كربخال، مارمول. إفريقيا. ترجمة محمد حجي ورفاقه. الرباط، المغرب: دار المعارف الجديدة، ١٩٨٤.

الكنتي، الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار. الرسالة الغلاوية. في سلسلة نصوص ووثائق: الرسالة الغلاوية: تأليف الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي. ورسالة في نسب إيدولحاج. تأليف عبد الله بن سيدي محمود الحاجي .تحقيق حماه الله ولد السالم. الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠٣.

القيرواني، أبو محمد عبد الله بن زيد. الرسالة الفقهية. إعداد وتحقيق عبد الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧.

العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦.

العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن محمد الكرماني ابن فضل الله. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق حمزة أحمد عباس. أبوظبي، الإمارات: المجمع الثقافي، ٢٠٠٢.

عياض السبتي، القاضي عياض بن موسىٰ. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تحقيق سعيد أحمد أعراب. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: ١٩٨٢.

الغلاوي، محمد النابغة بن عمر، من نصوص الفقه المالكي: بوطليحة. تحقيق ودراسة يحيىٰ ولد البراء، مكة المكرمة: مؤسسة الريان، ٢٠٠٤.

________. نظم الطريد، مخطوط بحوزتي.

مارتي، بول. القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني. تعريب محمد محمود ولد ودادي. ليبيا: دار الكتب الوطنية ببنغازي، ٢٠٠١.

محمدن أمين، محمدو. وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة. ترجمة وتحقيق وتعليق. نواكشوط، موريتانيا: جامعة نواكشوط، المطبعة الجديدة، ٢٠٠٠.

مفاخر البربر لمؤلف مجهول. تحقيق عبد القادر بوباية. الرباط، المغرب: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٥.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق توم بريمر. باريس، ١٩١٦.

________. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران. بيروت، لبنان: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

موسىٰ كمرا، الشيخ. تاريخ قبائل البيضان: عرب الصحراء الكبرىٰ. تحقيق حماه الله ولد السالم. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.

________. أشهىٰ العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر. تحقيق خديم محمد سعيد امباكي وأحمد الشكري. الرباط، المغرب: معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠١.

الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد. كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ. ج ٢: الدولتان المرابطية والموحدية. تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤.

النحوي، الخليل. بلاد شنقيط: المنارة والرباط. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق عبد المجيد ترحيني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤.

الوزان الفاسي، الحسن بن محمد. وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣.

الولاتي، أبو بكر محمد بن أحمد المصطفىٰ. منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور. تحقيق وتعليق محمد الأمين بن حمادي، نواكشوط: مكتبة القرنين ٢١/١٥ للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

ولد اباه، محمد المختار. الشعر والشعراء في موريتانيا. الرباط، المغرب: دار الأمان، ٢٠٠٣.

ولد الحاج إبراهيم، سيدي عبد الله. صحيحة النقل في علوية إيدوعلي وبكرية محمد غلي، مخطوط.

ولد الزين، سيدي. كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب، مخطوط من مكتبة أحمد باب التنبكتي.

ولد السالم، حماه الله. تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية. الرباط: منشورات دار الزمن، ٢٠٠٧.

__________. المجتمع الأهلي الموريتاني: مدن القوافل (١٥٩١-١٨٩٨). بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨.

ولد السعد، محمد المختار. الإمارات والنظام الأميري الموريتاني: النشأة والأطوار السياسيّة الكبرىٰ. الرباط، المغرب: مركز الدراسات الصحراوية، ٢٠١٤.

__________. الفتاوىٰ والتاريخ: دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال فقه النوازل. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠.

__________. حرب شرببة أو أزمة القرن ١٧ في الجنوب الغربي الموريتاني. نواكشوط، موريتانيا: المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ١٩٩٣.

اليدالي، الشيخ محمد. نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا- أمر الولي ناصر الدين- رسالة النصيحة). تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه. تونس: بيت الحكمة: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٠.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي. تاريخ اليعقوبي. بيروت، لبنان: دار صادر.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. كتاب البلدان. تحقيق ويليام جوينبول. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٦٠.

المصادِر الأجنبية

"A Relation Concerning the estate of the Island and Castle of Arguin and Touching on the Richard Secret Trade from the Island of Africa thither, written in the year 1491". A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, Collected by Richard Haklvyt London: George Bishop, Ralph Newberie, and Robert Barker, 1600, vol 3.

Abou Sall, Ibrahima. 2007. *Mauritanie du Sud: conquête et administration coloniales française 1890-1945.* Paris: Karthala.

Abun-Nasr, Jamil. 1987. *A History of the Maghrib in the Islamic Period.* Cambridge: Cambridge University Press.

"Al-Naqar, 'Umar . 1969. "Takrur the History of a Name". *The Journal of African History,* 10, 3: . 365-374.

Ancelle, J., ed. 1886. *Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité jusq'a nos jours.* Paris: Maisonneuve Fréres et Ch. Leclerc, éditeurs.

Apuleius, Lucius. 1998. *The Golden Ass or Metamorphises,* Trans. E. J. Kennedy. London: Penguin Books.

Ba, Ahmedou Mamadou. 1932. "L'Emirat de l'Adrar Mauritanien de 1872à 1908" *Bulletin Trimestriel de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran,* 53, 83-119.

Backwell, L. et al. 2008. Middle Stone Age bone tools from the Howiesons Poort layers, Sibudu Cave, South Africa. *Journal of Archaeological Science,* 35, 1566-1580.

Bandi, Hans-Georg. 1961. *The Art of the Stone Age: Forty Thousand Years of Rock Art,* New York: Crown Publishers.

Barbier, Maurice. 1984. *Trois Français au sahara occidental en 1784-1786.* Paris: Harmattan.

Barry, Boubacar. 1985. *Le Royaume du Waalo: le Sénégal avant la conquête.* Paris: Karthala.

Barthes, Henrich. 1857. *Travels and Discoveries in North and Central Africa,* New York: Harper and Brothers.

Batran, Aziz. 2001. *The Qadiriyya Brotherhood in West Africa and the Western Sahara: The life and Times of Shaykh al-Mukhtar al-Kunti (1729-1811).* Rabat: Institut des Etudes Africaines.

Bérenger-Féraud. 1879. Laurent Jean Baptiste, *Les peuplades de la Sénégambie: histoire, ethnographie, moeurs et coutumes, legendes, etc,* Paris: Ernest Leroux, 1879.

Bernstein, Peter L. 2000. *The Power of Gold: the History of an Obsession,* New York; Wiley.

Blanchard, Ian. 2001. *Mining, Metallurgy in the Middle Ages. Vol: 1: Asiatic Supermacy.* Stutgart: Steiner.

Blench, Roger & Matthew Spriggs, eds. 1997. *Archaeology and Language, I: Theoretical and Methodological Orientations,* London: Routledge.

Blench, R. and Kevin C. MacDonald. 2000. *The Origins and Development of African Livestock: Archaeology, Genetics, Linguistics, and Ethnography.* Routledge: ULC Press.

Bloch, Marc Léopold Benjamin. 1969. *Land and Work in Mediaeval Europe: Selected Paper.* California: University of California Press.

Boilat, Abbé David. 1984. *Esquisses sénégalaises.* Paris: Karthala.

Bonte, Pierre. (1981). "Kinship and Politics in the Sahara and Sahel," Henri J. M. Claessen, and Peter Skalník, Ed. *The Study of the State.* Hague: Mouton Publishers, 35-58.

2007. *Essai sur la formation tribales du Sahara occidental:approches comparatives anthropologies et histories.* Bruxelles: Editions Luc Pire.

2008. *L'émirat de l'Adrar mauritanien: Haŕm, compétition et protection dans une societé tribal saharanienne,* Paris: Karthala.

2016. *Récits d'origine: contribution à la connaissance du passé ouest-saharien (Mauritanie, Maroc, Sahara occidental, Algerie et Mali.* Paris: Karthala.

Bovil, E. M. 1970. *The Golden Trade of the Moors.* Oxford: Oxford University Press.

Boubrik, Rahal. 1998. " Hommes de Dieu, hommes d'épée: stratification sociale dans la société bidڤn ", *Journal des africanistes,* 68, 1-2, 261-292.

Bourdieu, Pierre. 1972. Esquisse d'une théorie de la practique. Dorz: Geneve.

----------. 1961. *Sociologie de l'Algerie.* Paris: PUF.

Bradley, Keith. 2012. *Apuleius and Antonjne Rome:Historical Essays,* Toronto: University of Toronto.

Braudel, Fernand. 1966. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II.* Paris: Librairie Armand Colin.

Broussais, Émile. 1891. *De Paris au Soudan: Marseille-Alger-transsaharien,* Alger: Imprimerie Casablanca.

Brett, Michael. 2001. *The Rise of the Fatimids: The World of the Mediterranean and the Middle. East in the Tenth Century C.E.* Leiden: E. J. Brill.

Bulliet, Richard. 1975. *The Camel and the Wheel.* Columbia: Columbia University Press.

Ca'da Mosto, Alvise. 1994. *Voyage en afrique noire d'Alvis Ca'da Mosto 1455 et 1456. Relations traduits, presentés et annotées par Fredricque Verrier.* edition Chanddeigne et Edition Unesco.

Caillié, René. 1830. 1830. *Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale.* Tome 1. Paris: L'Imprimerie Royale.

Capms, Gabriel. 1970. "Recheres sur les origins des cultivateurs noirs du sahara," Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, 7: 35-45.

Caratini, Sophie. 1989. *Les Rgaybat 1619-1934: des chameliers à la conquête d'un territoire.* Tome 1. Paris: L'Harmattan.

Cauvin, Jacques and Trevor Watkins. 2000. *The Birth of the Gods and the Origins of Agriculture.* Cambridge: Cambridge University Press.

Clark, J.D. 1981a "Prehistory in Southern Africa" in Ki-Zerbo, J. ed, *UNSECO General History of Africa Volume I: Methodology and African Prehistory,* California: University of California Press, 1981.

Cleaveland. Timothy. 2002. Becoming Walata: A History of Saharan Social Formation and Transformation. Portsmouth, NH: Heinemann.

Konczacki, Z.A. and J. M. Konczacki, eds. 1977. An Economic History of Tropical Africa: The Pre-Colonial Period, New York: Frank Cass.

Conrad, David. 2005. *Empire of Medieval West Africa.* New York: Facts on File.

Coppolani, Xavier. 1999. *Mauritanie Saharienne: Novembre 1903 a mai 1904.* Paris: L'Harmattan.

Cornevin, Marianne. 1998. *Secrets du continent noir révélés par l'archéologie.* Paris: Maisonneuve et Larose.

Crone, Patricia, Patricia Crone, 1994. "Even an Ethiopian Slave," *Bulletin of School of Oriental and African Studies, University of London*, (BSOAS), 57: 1, 59-67.

Curtin, Philip D. 1969. *The Atlantic Slave Trade: A Census.* Madison: University of Wisconsin Press.

Darwin, Charles and Sir Francis Darwin, *Charles Darwin's Works: The Descent of Man and Selection in Relation to Sex,* New York: D. Appleton and Company, 1896.

Davidson, Basil. 1982. *African Civilization Revisited: from Antiquity to Modern Times.* New Jersey: African World Press.

---------- 1971. *Lost Cities of Africa.* London: Little Brown.

De Azurara, Gomes Eannes. 1896. *The Chronicle of the Discovery of Guinea.* Trans. Charles Raymond Beazley and Edgar Prestage. vol 1. New York: Burt Franklin.

De Corse, C. R. Ed. 2001. *West Africa during the Atlantic Slave Trade.* New York: Continum, 2001.

De La Courbe, Michel Jajoljet. 1913. *Premier Voyage du sieur de la Courbe fait à la coste d'afrique en 1685.* Publié par P. Cultru, Paris: 1913.

De L'Angle, Fleuriot. "Croière de la ĉte d'Afrique", *Le Tour Du monde: Nouveau Journal des voyages,* Paris: Librairie Hachette, 1872.

De Lartigue, R. Notices sur les Maures du Senegal et du Soudan.L'Afrique française: bulletin mensuel du Comité l'Afrique Française, Vol 7, by Comité du Maroc, Comité de l'Afrique française, 1897, Paris: Comité de l'Afrique Fraçaise, 7, 41-72.

De Villiers, Marqe and Sheila Hirtle. 2002. *Sahara: an extraraordinary History of the World's Largest Desert,* New York: Walker and Company.

De Pommegorge, Antoine Edme Pruneau. 1789. *Description de la Nigritie.* Amstrdam.

Denise Robert, Serge Robert et Jean Devisse. *Tegdaoust I. Recherches sur Aoudaghost.* Paris: Arts et métiers graphiques, 1970.

Désiré-Vuillemin, Geneviève. 1962. *Contribution à l'histoire de la Mauritanie 1900-1934.* Dakar: Edition Calirafrique.

De Valicourt, Bénédicte. 2000. *Mauritanie,* Paris: Edition Marcus.

Diamond, Jared. 1999. *Guns, Germs, and Steel,* New York: Norton Press.

Diouf, Mamadou. 1990. "Le gouverneur Schmaltz et les débuts de la colonisation agricole," *Le Kajoor au XIXe siécle: pouvoir ceddo et conquete coloniale,* 123-128.

Dubié, Paul, Ed. 1943. "El 'Omda" poèm sur la médecine Maure" par Aoufa ould Abou Bekrin (1780-1850), *BIFAN,* 5, 4 /1: 38-66.

Duke, George. 1844. *The Life of Major-General Worge, colonel of the 86th Regiment of Foot and Governor of Senegal in Africa with an Account of the settlement.* London: Parker, Furnivali and Parker Whitehall.

Durand, Jean Baptiste Léonard. 1807. *Atlas Pour Servir du voyage au Senegal.* Paris: Dentu imprimeur.

F. Dachraoui, 1956. "La capitivité d'ibn Wasul, le rebel de Sijilmasa", *Les Cahiers de Tunisie*, 15, 295-269.

El Fasi, M., and I. Hrbek. 1992. *General History of Africa: (vol III) Africa from the Seventh to the Eleventh Century.* California: James Currey.

Fabert, Léon. 1892. "Voyage dans le pays des Trarzas et dans le Sahara Occidental", *Bultein de la société de géographie,* 13: 375-392.

Fernandes, Valentin. 1938. *Description de la cote d'Afrique de Ceuta au Sénégal.* P. De Cenival et Th. Monod (Eds) Paris V: Librairie Larousse.

Forbes, Jack. 1993. *Africans and Native Americans: The Language of Race and the Evolution of Red-Black Peoples.* Illinois: University of Illinois.

Ehert, Christopher. "Sudanic Civilization," Michael Adas, ed. *Agricultural and pastoral societies in ancient and classical history.* Philadelphia: Temple University Press

----------.2002. *The Civilizations of Africa: A History to 1800.* Virginia: The University Press of Virginia.

Gatelet, Auguste Louis Charles. 1899. *Histoire de la conquête du Soudan français (1878-1899),* Paris.

Gerster, Georg. *1960. Sahara: Desert of Destiny.* Trans. Steward Thomson. New York: Coward McCann.

Gerteiny, Alfred. 1981. *Historical Dictionary of Mauritania,* Metuchen &London: The Scarecrow Press.

Golberry, 1804. "Customs and Charecter of the Moors of Zaara", in Andrew Kippis, William Godwin, (Eds) *New Annual register or General Repository of History, Politics and Literature for the Year 1803,* Trans. F. Bladgon, Esq. London: G And J. Robinson, Paternoster-Row.

El Hamel, Choukri, 2013. Black Morocco: a History of Slavery, Race and Islam, Cambridge: Cambridge University Press.

Hamet, Ismael. 1911. *Chroniques de la Mauritanie sénégalaise.* Paris: Editions Leroux.

Hanno. 1912. *The Periplus of Hanno: a voyage of discovery down the west African coast by a Carthaginian Admiral of Fifth century B.C.* Trans. Wilfred Schoff. Philadelphia: Commercial Meuseum.

Hardy, George. 1921. *La Mise en valeur du Sénégal de 1817à 1854.* Paris: Emile Larose.

Haviland, William A., et al. 2001. *Evolution and Prehistory: The Human Challenge.* Wadworth: Cenagage Learning.

Herodotus. 1773. *The History of Herodotus.* Translated from the Greek by Isaac Littelbury. London: Midwinter and Battesworth.

Hirschberg, H. Z. 1963. "The Problem of the Judaized Berbers," *Journal of African History 4,* 3: 339-313.

Hitchcock, Richard. 2014. *Muslim Spain Reconsidered: from 711 to 1502.* Edinburgh: Edinburgh University Press.

Hodges, Tony. 1982. *Historical Dictionary of Western Sahara.* Metuchen &London: The Scarecrow Press.

Holl, Augstine F. C. 2006. *West African Early Town: Archeology of Households in Urban Landscapes.* Mitchigan: Ann Arbor.

Hoffmann, Eleanor. 1965. *Realm of the Evening Star: A History of Morocco and the Lands of the Moors,* New York: Clinton Chilton Books.

Holt, Peter et al., 1970. *The Cambridge History of Islam: The Indian Subcontinent South east Asia, Africa and the Muslim West.* Vol 2A. Cambridge: Cambridge University Press.

Hopkins, A. G. 1973. *An Economic History of West Africa,* London: Longman.

Howell, Clark, "Origin and Evolution of African Hominida," J. D. Fage and Ronald Oliver, eds. *The Cambridge history of Africa: From the earliest times to c. 500 BC.* Cambridge: Cambridge University Press, 1982.

Ibn Said, Oumar. 2011. *A Muslim American Slave: The Life of Omar Ibn Said.* Trans. Ala Alryyes. Wisconsin: The University of Wisconsin Press.

Ilahiane, Hdain. 2006. *Historical Dictionary of the Berber (Imazighen).* Oxford: The Scarecrow Press.

Jacques-Meunié, D. 1957. "Cités caravanières de Mauritanie Tichite et Oualata". *Journal de la Société des Africanistes,* 19: 19-35.

---------- 1982. *Le Maroc saharien: des origines à 1670.* Paris: Librairie Klincksieck.

Jore, L. 1953. "La vie diverse et volontaire du colonel Julien, Désiré Schmaltz, Officier des Forces Indo-Néerlandaises, puis de l'Armée Française, Commandant pour le Roi et Administrateur du Sénégal et Dépendances, Consul Général de France à Smyrne (Turquie), (1771-1827"). *Revue d'histoire des colonies,* 40, 139, deuxième trimestre pp. 265-312.

Kane, Oumar. 2004. *La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Tenella à Almaami Abdul.* Dakar: Karthala.

Law, Robin C. C. 1976. "The Garamantes and Trans-Saharan Enterprise in Classical Times," *Journal of African History 8:* 181-200.

Le Chatelier, Alferd. 1899. *L'Islam dans L'afrique occidentale.* Paris: G. Steinheil, Editeur.

Leo Africanus. 1890. *The History and Description of Africa.* Trans. Robert Brown. London: The Halyuk Society.

Leriche, A. 1951. "De l'origine du thé en Mauritanie", Bulletin de VI.F.A.N, 13, 868-71.

Levis H Gann and Peter Duigan. 2000. *Maryland, Africa and the World: An Introduction to the History of Sub-sahara,* university press of America.

Love, Paul M. Jr., 2012. "The Sufris of Sijilmasa: toward a history of the Midrarids", *The Journal of North African Studies, (2010) 15: 2, 173-188.*

Le Tourneau, Roger. 1969. *The Almohad Movement in North Africa in the Twelve and thirteen Centuries.* Translated from French. Princeton: Princeton University Press.

Levtzion, Nehemia. 1968. " Ibn-Hawqal, the Cheque, and Awdaghost." *The Journal of African History* 9(2): 223-33.

---------- 1978. "'Abdellah Ibn Yasin and the Almoravids," *Studies in West African History: The Cultivators of Islam, vol 1, edt; John Ralph Wilis. London: Frank Cass.*

----------. 1979. "The Sahara and the Sudan form the Arab Conquest of the Maghrib to the rise of the Almoravids". *In* J. D. Fage and Ronald Oliver, Eds. *The Cambridge History of Africa: Volume 2: From c.500 BC to AD 1050.* Cambridge: Cambridge University Press.

Lewicki, T. 1962. "L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII et au IX siècle", *Cahiers d'Etudes africain*, 1962, 2, 513-35.

---------- 1970. "Les origines de l'Islam dans les tribus berbères du Sahara occidental: Musa ibn Nusayr et'Ubayd Allah ibn al-Habhab," *Studia Islamica,* 32: 203-214.

Lewontin, R. C. 1974. *The Genetic Basis of Evolutionary Change,* New York: Columbia University Press.

Louis Gustave Binger. 1982. Du Niger au Golfe de Guinée par le pays de Kong et le Mossi 1887-1889, Tom 2, Paris: Librairie Hachette.

Lucas, A.J. 1931. "Considérations sur l'ethnique maure et en particulier sur une race ancienne: les Bafours," *Journal de la Société des Africanistes,* tome 1, 151-194.

Ly-Tall, M. 1984. "The Decline of the Mali Empire," D. T. Niane, *The General History of Africa. Vol IV: Africa from the Twelfth to the Sixteenth Century,"* California: UNESCO.

McDonald, Keven. 1999. "Invisible Pastoralists: an inquiry into the Origins of Nomadic Pastoralism in the West African Sahel," in Chris Gosden and Jon Hather, eds, *The Prehistory of Food: Appetites for Change,* Routledge.

McDougall, E. Ann. 1983. "The Sahara Reconsidered: Pastoralism, Politics and Salt from the Ninth through the Twelfth Centuries." *African Economic History* 12: 263-86.

McIntosh, Susan Keech. 1981. *A Reconsideration of Wangara/Palolus, Island of Gold. The Journal of African History,* Vol. 22, 2: 145-158.

McKissack, Patricia and Fredrick McKissack. 2010. *The Royal Kingdoms of Ghana, Mali, and Songhay,* New York: Perfection Learning.

MacFarlane, Alan. 2000. *The Riddle of the Modern World: of Liberty, Wealth and Equality.* London: Polgrave.

Marcel, Baudouin (1919), "Hache plate et Flèche en métal de Mauritanie," *Bulletin de la Société préhistorique française,* 1919, tome 16, 3, 167-171.

Mark, Peter. 2002. "Portuguese" Style and Luso-African Identity: Precolonial Senegambia, Sixteenh-Nineteenth Century, Indiana: Indiana University Press.

Marty, Paul. 1919. *L'Emirat des Trarzas.* Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux.

Marx, Emanuel. 2006. "*The political Economy of Middle Eastern and North African Pastoral Nomads,"* Dawn Chatty, Ed<e46 *Nomadic societies in the Middle East and North Africa: Entering the 21st Century,* Leiden: Brill, 2006.

Masonen, Pekka; Fisher, Humphrey J. 1996. "Not quite Venus from the waves: The Almoravid conquest of Ghana in the modern historiography of Western Africa", *History in Africa,* 23: 197-231.

Maudimbe, V., W. 1994. *The Idea of Africa.* Indiana: Indiana University press, 1994.

Mauny, Raymond. (1975). "Trans-Saharan Contact and the Iron Age in West Africa". J. D. Fage, ed, *The Cambridge history of Africa: From 500 BC to AD 1050. Cambridge: Cambridge University Press,* 272-341.

Mela, Pomponius and Romer., Frank E., Ed. 1998. *Pomponius Mela's description of the world Par Pomponius Mela.* Michigan: University of Michigan Press.

Mendes, Antonio de Almeida. 2009. "Child Slaves in the Early North Atlantic Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries". In *Children in Slavery through the Ages* (eds. Gwyn Cambell, Suzanne Miers, Joseph C. Miller). Athens: Ohio University Press, pp. 19-35.

Mercier, Ernest. 1830. *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française.* Paris: Ernest Leroux.

Mercer, John. 1976. *Spanish Sahara.* London: George Allen & Unwin Ltd.

Messier, Ronald. 2006. "Re-thinking the Almoravids, re-thinking Ibn Khaldun," *The Journal of North African Studies,* 6: 59-80.

---------- 2010. *The Almoravids and the Meaning of Jihad.* California: Praeger.

Michael Brett & Elizabeth Fentress. 1997. *The Berbers,* London: Blackwell Publishers.

Michel, Abitbol. 1980. "Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle ", *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,* 30, 5-20.

Ministère des affaires étrangères. Recueiles des traits de la France, vol 4.

Mitchel, Peter. 2005. *African Connection: an archeological perspective on Africa and the wider world.* Oxford: AltaMira Press.

Modat, (lieutenant-colonel), 1919, " Les populations primitives de l'Adrar mauritanien ", *Bulletin du Comité des Etudes Historiques et Scientifiques de l'AOF:* 372-392.

Morel, Edmond. 1902. *Affairs of West Africa.* London: Wiliam Heinmann.

Moscati, Sabatino. 2001. *The Phoenicians.* London; New York: I. B. Tauris.

Munson, Patrick J. 1980"Archaeology and the Prehistoric Origins of the Ghana Empire," *The Journal of African History* 21(4): 457-466.

Naimi, Mustapha. 2004. *La dynamique des alliances oust-saharienne.* Paris: Edition de la maison des science de l'homme.

Newitt, Malyn. (1986). "Prince Henry and Origins of Portuguese expansion" *In* Ed. M. D. D. Newitt, *The First Portuguese Colonial Empire.* Exter: Exter University Press.

Norris, H. T. 1967. "Sanhaja Scholars of Timbuctoo," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* 30: 634-40.

---------- 1968. *Shinqiti Folk Literature and Songs.* Oxford: Clarendon Press.

---------- 1971. "New Evidence on the Life of Abdullah ibn Yasin and the origin of the Almoravid Movement," *Journal of African History,* 12(1971): 255-268.

---------- 1972. *Saharan Myth and Saga.* Oxford: The Clarendon Press.

---------- 1984. "Mauritanian Medicine", *The Maghreb Review,* 9, 5-6: 119-127.

---------- 1986. *The Arab Conquest of Western Sahara.* London: Stacey International.

---------- 1986. *The Arab Conquest of the Western Sahara.* Beirut: Longamm Librairie du Liban.

Nourdin Harich, Marta D. Costa, Veronica Fernandes, et al. 2010, "The Trans-Saharan Slave Trade: Clues from Interpolation Analyses and High-resolution Characterization of Mitochondrial DNA Lineage," *Bio Medical Central Evolutionary Biology,* 2010, 3, 1. http://bmcevolbiol.biomedcentral.com.ezproxy2.library.arizona.edu/articles/10.1471/1186-2148-10-138.

Ould Assa'd, Muhammed Al Muhtar. 1989. " Emirats et espace émiral maure: le cas du Trarza aux XVIIIe-XIXe siècles," *Revue du monde musulman et de la Méditerranée,* 54: 53-82.

Ould Cheikh, Abdel Wedoud.1985. *Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la societé maure précoloniale (XIeme siècle -XIX eme siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme.* Paris: Paris V Reiné Descartes.

---------- 1991. *Elements* d'*histoire de la Mauritanie.* Nouakchott: Centre Culturel Français.

---------- . 1991. "Herders, Traders and Clerics: The Impact of Trade, Religion and Warfare on the Evolution of Moorish Society" in John G. Galaty and Pierre Bonte, *Herders, Warriors and Traders* (Boulder; Colo., 1991) 199-218.

---------- 1997. "Harun Wuld al-Shaikh Sidiyya 1919-1967," David Robinson et Jean Louis Triaud, eds, *Temps des marabouts: itineraires et strategies islamique en Afrique occidentale francaise v. 18880-1960,* Paris: Karthala, 1997, 201-235.

Ould Cheikh, Abdel Wedoud and Bernard Saison. 1987. "Vie(s) et mort(s) de al-Imam al-Hadrami: Auteur de la posterité saharienne du movement al Moravide (11e-17e s)". *Arabica,* 34: 48-79.

Ould Khalifa, Abdallah. 1998. *La Région du Tagant en Mauritanie: l'oasis de Tijigja entre 1660 et 1960.* Paris: Edition Kharthala.

Palmer, H. R. 1926. "The Tuareg Veil". *The Geographical Journal,* 68: 412-18.

"M. Delafosse's account of the Fulani," *Journal of the Royal African Society,* 13, 1913-1914, 195-203.

Park, Mungo. 1799. *Travels in the Interior Districts of Africa.* London.

Pati, Raphael, and Jennifer Pata. 1975. *The Myth of the Jewish Race.* New York: Chareles Scribner's Sons.

Patricia McKissack and Fredrick McKissack. 2010. *The Royal Kingdoms of Ghana, Mali, and Songhay.* Clive, IA: Perfection Learning.

Pazzanita, Antonio. 2008. *Historical Dictionary of Mauritania.* Metuchen &London: The Scarecrow Press.

Pelletier, F. X. 1986. *Les Hommes qui cuillent la vie: les Imraguen.* France: Flammarion.

Penny Encyclopaedia of the Society for the Diffusion of Useful Knowledge. 1883. London: Charles Knight.

Perinbam, B . Marie. 1973. "Social Relations in the Trans-Saharan and Western Sudanese Trade: An Overview", *Comparative Studies in Society and History,* 15, No., 416-36.

Peter, Mark and José da Silva Horta. 2011. *The Forgotten Diaspora Jewish Communities in West Africa and the Making of the Atlantic world.* Cambridge: Cambridge University Press.

Pliny The Elder. 1893. *The Natural History of Pliny.* Trans. John Bostock &H. T. Riley. London: George Bell and Sons.

Pomet, Pierre. 1735. *Histoire générale des drogues simples et composes.* Paris: Etienne Ganeau et Louise Etienne Gannea fils.

Pomponius Mela, 1827. Pomponius Mela. C. P. Fradin (Ed.) Paris: Librairie de Brissot Thivars.

Poulet, George. 1904. *Les maures de l'Afrique occidentale française.* Paris: Libraiarie Marime et Coloniale.

Prussin, Labelle. 2006. "Judaic Threads in the West African Tapestry: No More Foreever?," *The Art Bulletin,* 88, 2: 328-353.

Rézette, Robert. 1975. *The Western Sahara and the Frontiers of Morocco.* Paris: Nouvelles Editions Latines.

Rhind, William. 1841. *A History of Vegetable Kingdom,* Glasgow: Blakie & Son.

Ricard, François Pierre. 1865. *Le Sénégal: étude intime.* Paris: Chlamel Ane.

Robert O. Collins and James McDonald Burns. 2007. *A History of Sub-Saharan Africa.* Cambridge: Cambridge University Press.

Robinson, David. 2010. *Paths of Accomodatiom: Muslim Societies and French Colonial Authorities in Senegal and Mauritania 1880-1920,* Ohio: Ohio university Press.

Saad, Elias N. 2010. *A Social History of Timbuktu: the role of Muslim Scholars and Notables 1400-1900.* Cambridge: Cambridge University Press.

Saint-Martin, Yves-Jean. 1989. *Le Sénégal sous le second Empire.* Paris: Karthala.

Saugnier and Brisson. 1792. *Voyage to the Coast of Africa,* London: G.G.J. and J. Robinson.

Savage, E. 1992. "Berbers and Blacks: Ibadi Slave Traffic in Eighth-Century North Africa," *The Journal of African History,* 33, 3: 351-368.

Schroeter, Daniel J. 1988. *Merchants of Essaouira: Urban Cities and Imperialism in Southwest Morocco, 1844-1886,* Cambridge: Cambridge University Press.

Shabeeny, El Hage Abd Salam. 1820. *An account of Timbuctoo and Housa: Territories in the Interior of Africa.* London.

Shaw, Ian and Robert Jameson, eds. 1992. *A Dictionary of Archeology.* Blackwell: Blackw.ghell Publishing Compay.

Shillington, Kevin, ed. 2005. *Encyclopedia of African History,* New York: Tylor & Francis Group.

Sinou, Alain. 1993. *Copmtoirs et villes coloniales du sénégal: Saint-Louis, Gorée, Dakar.* Paris: Karthala.

Snowden, Frank. 1970. *Blacks in Antiquity: Ethiopians in Greco-Roman Experience.* Harvard: Harvard University Press.

Stewart, Charles, C. 1971. *Islam and Social Order in Mauritania: A Case Study from the Nineteenth Century.* Oxford: Clarendon Press.

Southern Saharan Scholarship and the 'Bilad al-Sudan'." JAH 17(1976), 73-93.

Stringer, Chris. 1982, "The Evolution of Man," *New Scientist,* 15, 152-156.

Swartz, B. and R. Dumett, eds. 1980. *West African Culture Dynamics: Archeological Perspective.* Le Hague.

Taylor, Raymond., M. 1995. "Blood Money in the Nineteenth-Century Mauritania". *Journal of African History* 36(3): 419-441.

Thomas, Hugh. 1967. *The Slave Trade: The History of Atlantic Slave Trade 1440-1870.* New York: Touchstone.

Thornton, John Kelly. 1998. *Africa and Africans in the Making of the Atlantic World, 1400-1800.* Cambridge: Cambridge University Press.

Vernet, Robert. 1989. *La Mauritanie: des origines au debut de l'histoire,* Nouakchott: Centre Culturel Français.

---------- 1988. *Un Habitat de l'age de cuivre (2500 B. P.) de la region de Nouakchott (Mauritanie occidentale): Imbish est. Sahara preistoia e stoia del sahara.* Paris: Milani Pyramids.

Webb, James. "The Horse and Slave between the Western Sahara and Senegambia", JAH 34(1993), 221-46.

---------- 1995. *Desert Frontier: Ecological and Economic Change along the Western Sahel 1600-1850.* Wisconsin: The University of Wisconsin Press.

---------- 1995. "The Evolution of the Idaw al-Hajj Commercial Diaspora," *Cahiers d'Etudes Africaines,* 35, 18, pp. 455-475.

Whitcomb, Thomas. 1975. New Evidence on the Origins of the Kunta. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 38, 1: 103-123.

White, Kevin, and David J. Mattingly, 2006. "Ancient Lakes of the Sahara," *American Scientist,* 94, pp.58-65.

Williams, Chancellor 1976. *The Destruction of Black Civilization. Great Issues of a Race from 4500 B. C. to 2000 A. D.* Chicago: Third World Press.

Williams, Joseph W. 1930. *Hebrewism of West Africa: From the Nile to Niger with the Jews.* London.